وشـوشـات

وشـــوشـــات

نصـــــوص

محمـد صـابـر جـرادات

وشـــوشـــات

نصـــوص

اسم الكاتب: محمد صابر جرادات
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٦٥٨٥ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

مقدمة

الحالة الفلسطينية خلال السنوات الأخيرة حالة مُعقّدة وغير مألوفة في تاريخ القضية الفلسطينية، والحالة هنا تعني الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والنفسية وتوابع هذه الحالة وارتداداتها، لا يمكن لأحدٍ أن ينكر أنّ هناك مرحلة مختلفة خلال السنوات الأخيرة، فهي مزيج بين الانقسام والتنمية والاحتلال والمقاومة والمفاوضات والحرب، مزيج من المتناقضات الفكرية والاجتماعية، وهي غير خافية على كلّ المتابعين للوضع الفلسطيني، الأهم أننا أمام مرحلة مصيرية ليست كأيّ مرحلة سابقة تضعنا في النهاية أمام خيارين لا ثالث لهما، الأول أن تعود الوصاية العربية على الأرض والشعب والقرار الفلسطيني، ونعود بالحالة الفلسطينية إلى وصاية مصرية في غزة وفلسطينية أردنية في الضفة الغربية في أحسن حال، أمّا الخيار الآخر فهو إقامة دولة فلسطينية على الأرض الفلسطينية كافةً بحدود قابلة للتمدد وليس العكس وهو ما يتمناه الجميع، أمّا الخيار الذي لا نتمناه فهو إقامة كيانين مسخين منفصلين أحدهما في الضفة المحتلة والثاني في غزة المحاصرة، هذه الحالة وتوابعها الاقتصادية وارتداداتها الوطنية والنفسية والاجتماعية هي محور هذه المجموعة التي رأيت أنّ أفضل ما يمكن أن تُعنون به هو "وشوشات وطنية"، والوشوشة بالمصطلح الفلسطيني التقليدي هي همس أحدهم في أذن الآخر.

وربما أن هذه النصوص المنتقاة من مقالات وقصص قصيرة جدًّا تعبر بوضوحٍ عن حالة المواطن الفلسطيني العادي، المواطن الذي يحلم بالقليل ليتساوى مع أيّ إنسان على هذه الأرض، يحلم بالحرية وبالعيش الكريم وبالحياة المستورة والمقبولة لإنسانيته، فهذه الوشوشات أهمسها في أذن القارئ وأخص بها هذا المواطن المغلوب على أمره، ليعي تمامًا أننا كمعبرين عن الحالة الفلسطينية نفهم تمامًا أنّه يعاني كثيرًا كما نعاني جميعًا من الأسودين "الاحتلال، الانقسام" اللذين أصبحا خطرًا حقيقيًّا ليس على طموحاتنا الوطنية والاقتصادية فقط، وإنما أصبحا باجتماعهما يشكلان خطرًا حقيقيًّا على وجود الإنسان الفلسطيني على هذه الأرض.

الإهداء

خروجًا عن العادة في الإهداء وحتى أكون أوّل من يتّعظ بهذه النصوص المهموسة في أذن من يقرأها فأنا أفضل أن يكون الإهداء مُوجّهًا لمقدساتنا كفلسطينيّين، أهمس لأحلامنا جميعًا ولأوجاعنا، لخططنا الوطنية، إهداء أهمسه للأطفال في غزة وللمدافعين عن أزقة المدينة العتيقة في القدس، ولمن نسجوا بأيامهم وأعوامهم خيوطًا للشمس لتخرج يومًا من خلف الجدران، للقدس أهمس كثيرًا كما يهمس العاشقون فهي حرف الزمان والمكان وهي رغيف الجائعين للحرية وحكاية الليل..

للشهداء أيضًا نهمس بإهداء هذه النصوص، الشهداء لم يكونوا يومًا رمزًا للموت فهم بجدارةٍ يصنعون الحياة بطريقتهم الخاصة، كأنهم يقولون لنا اكتبوا ما شئتم فنحن من نكتب التاريخ ونرسم الحدود.

الوحدة والكرامة والحرية كلها مرادفات لمصطلح الوطن الذي يمتد ليرسم الخريطة بألوان العلم، أخضر كلون الزيتون في طولكرم و أبيض كزهر اللوز في رام الله، وأحمر كحنون سهل مرج بن عامر وأسود كآخر لحظات الفجر حين تراقبه على شاطئ بحر غزة، فللوحدة والوطن التاريخي أهمس بالإهداء.

وشوشات

قصة يوسف...

إنارة الشوارع هذه الليلة خافتة على غير عادتها.. فتح باب الحافلة وقال "محطة هاردوف"..

كانت العجوز غولدا تجلس في كرسي قرب النافذة.. كانت تتابع بشغف تفاصيل المكان الذي لن تنساه أبدًا.. فهنا وبعد سنتين على قدومها من مدينة ثورن البولونية كانت متطوعة في مجموعة يهودية محاربة لقتل العرب وطردهم من المكان.. تتذكر جيّدًا أنّها أطلقت النار على طفل عربي ليكون ضمن ضحايا مذبحة دير ياسين التي حدثت في هذا المكان تحديدًا...

آخر محطة.. صوت سائق الحافلة قاطع رحلتها في الذكريات.. حملت حقيبتها وتوجهت نحو الباب وقالت له مبتسمة: "تودا يوسف".

ابتسم لها وفتح الباب وقال لها.. : انتبهي فالأضواء مطفئة الليلة..

همّت بالخروج من باب الحافلة المرتفع على قدميها اللذين بالكاد يحملانها.. كان يراقبها طوال الوقت.. حاولت أن تنزل قدميها على حافة الرصيف إلّا أنّها أخطات تقدير المسافة.. فقدت توازنها.. الحقيبة السوداء سقطت أوّلًا وقبل أن تنزلق قدمها الأخرى كان يوسف قد أمسكها من ذراعيها الهزيلتين ليعيد إليها التوازن ثانيةً..

بعد أن اطمأنت و اقفةً على الأرض تناول حقيبتها وهي تبتسم له ممتنّةً ببعض ما تستطيع من مخارج الحروف العربية.. "شكرًا يوسف أنت شاب طيب".

قبل أن يكمل يوسف رحلة العودة إلى محطة الباصات ومنها إلى البيت سيرًا على الأقدام.. كان قد أمسك هاتفه وبدأ بكتابة رسالة إلى زوجته: "حبيبتي أنا في الطريق إليكم، سأشتري الخبز واللبن، لا تدعي الأطفال ينامون قبل وصولي. أنا سعيد فقد أنقذت سيدةً عجوزًا من السقوط، سأحكي لك القصة عندما أصل. أحبك".

ترجل يوسف بعد أن وضع الحافلة في مكانها على أرض محطة الحافلات. ودّع أصدقاءه بابتسامة اعتادوها كلّ ليلة منذ عشرة أعوام.

كانت إضاءة الشوارع تلك الليلة مرتعشة.. دخل زقاقًا يوصله إلى بيته، وفي وسط الزقاق مرّ به ستة من تلاميذ المعهد الديني الذي أقيم على أنقاض مسجد فلسطيني.

ألقى عليهم التحية بلغتهم "شلوم".. لم يجبه أيّ من الستة.

مضى ثلاث خطوات إضافية وفجأةً شعر بشيء ما باردٍ وحادٍّ صلبٍ يحيط رقبته. وفي لحظة كان هناك من يُثبِّت يديه ليسقط منهما كيس الخبز المعد لعشائهم ما بعد الأخير..

بعد أن أحكموا القبضة عليه اقتادوه إلى زاوية غير مكشوفة.. كانوا قد قيّدوا يديه إلى الخلف وكان حبلٌ من البلاستيك السميك يلتف حول عنقه.. مع بعض من مجرى النفس المتوفر طلب يوسف أن يقول شيئًا..

فظن سادسهم أنّه سيطلب العفو والرحمة.. وأنّه سيُذكِّرهم بالتعايش والوطن المشترك.. وسيقرأ عليهم سطرًا أو سطرين من اتفاقية السلام الموقّعة مثلًا.. أتاحوا لك الكلام فقل يا يوسف..

نظر إليهم مبتسمًا وقال: الآن سيعلم الجميع أنّ هذا هو الحل الحقيقي للمسألة... لم يفهم القتلة ما يقصده يوسف بتلك العبارة وأعدموه... أمّا العجوز غولدا وكانت قد سمعت قصة يوسف فيما بعد فقررت أن تعود لتدفن في بولونيا فلربما فهمتها..

شباك المحاسب...

كانت المرّة الأولى التي رآها فيها، كانت تخرج من بوابة الجامعة لتركب الحافلة التي تنقل الطلبة إلى وسط البلد، جلست بجانبه صدفة في الحافلة، أنيقة هادئة مهذبة هكذا هي، بعد أن وجد وظيفةً وبصعوبة في قسم المحاسبة في الجامعة كان لا بد من البحث عن عروس تكمل معه الحياة، كانت وبكل المقاييس مناسبةً له، وصلت الحافلة وخرج الجميع منها وتوجّه إلى السائق العم "أبو سالم"..

: عم أبو سالم يمسيك بالخير.

: الله يسعدك مساك عمي صلاح..

: عمي لو سمحت الصبية الي كانت جنبي عالكرسي بتعرف عنها؟ والنية زواج إن شاء الله...

: البنت من قرية هون بنت خلوقة ومؤدبة وأبوها من أعيان القرية وربنا معطيهم من أرز اقه. انتهى حوارهما..

بعد أسبوع.. توقفت على شباك المحاسبة وأرادت دفع الرسوم للموظف على الشباك، صلاح ينظر إليهما بتمعُّن وانتباه، تتحدث إليه لربما يعرف عنها شيئًا، بعد أن غادرت مكتب المحاسبة توجّه مسرعًا إلى زميله الذي استلم منها الرسوم يسأله عنها، فقال..

: نعم أعرفها من قريتنا، لماذا تسأل؟

أفكر في التقدم لخطبتها..

تغيّر وجه موظف الشباك وهمس له بصوتٍ منخفضٍ بعض الكلمات!

حمل صلاح خيبته بعد ما سمع وتوجه إلى مكتبه مُبتدئًا في رحلة جديدة للبحث عن عروس.

شخصية هامة جدًّا..

في اليوم الخامس عشر استُدعى إلى قاعة المحكمة، كانت يداه مكبلتين بقيد حديدي خلف ظهره وحمله العساكر إلى سيارة نقل السجناء؛ فاليوم هو اليوم المائة والعشرون على توقيفه، جلس على المقعد الحديدي الملتهب بلسعات شمس الظهيرة وتحركت به السيارة إلى مبنى المحكمة، في الطريق ومع هزهزات العربة تحركت الصور في مخيلته المتعبة..

طفله الصغير معاذ يقفز فرحًا برؤيته كلما دخل البيت..

أميمة تحمل دفتر واجباتها اليومي لتريه فرِحةً ما كتبته المعلمة من كلمات الثناء.. زوجته أماني تبتسم وهي تُودِّعه أمام البيت كلما همّ بالخروج..

بيسان في مهدها الصغير تكاد تطير قفزًا إلى أحضانه كلما هلّ مبتسمًا إليها..

صوت العساكر يوقظه من غفلته الجميلة المسروقة، يحمله العسكر إلى قاعة المحكمة، يفكُّون الأصفاد الحديدية، يتهامس العساكر..

: إنّه الشاب الذي اختلف مع "أبو روان" (شخصية هامة جدًّا).

يقف أمام القاضي بصمت، يوزع القاضي نظراته بين ملف القضية وهيئة المتهم المتعبة، يقرر أن الإفراج عنه قرار واجب..

يتقدم نحوه موظف يرتدي بدلة رسمية، يهمس في أذنه، يقرر القاضي أنّ المتهم خطر على أمن المجتمع يجب الاستمرار في احتجازه لخمسة عشر يومًا إضافية.

مقابلة..

استيقظ خالد من نومه باكرًا هذا اليوم، أقفل المنبه وتسلّل من فراشه بعد أن أكمل لباسه بكامل أناقته وتناول لقمات من الخبز مع الزيت والزعتر وسحبات من الشاي الساخن.. أعاد الوقوف أمام المرآة على وقع دعوات أمه بالتوفيق في الحصول على الوظيفة بعد هذه المقابلة التي يكررها عبر ثلاث سنوات للمرة السادسة؛ فبالرغم من تفوقه الدراسي وحصوله على درجات علمية ممتازة فإن الحظ -والحظ فقط- لم يحالفه في الاستمتاع بعمل وظيفي يناسب مؤهله العلمي.

في مكتب المقابلات كان من أوائل الواصلين زمنيًّا، بدأ الموظف المسؤول عن المقابلة بالمناداة على الأسماء، كان أوّل الأسماء شابًّا تبدو عليه آثار الترف والغنى، يقف غير مكترثٍ بشيء، يبدو أصغر الحاضرين ويبدو أقلهم حاجة لتلك الوظيفة، كان الشاب وبلا إعلان مسبق قد توجه إلى خارج المكتب ليتحدث في الهاتف، فكان خالد التالي، دخل إلى المكتب وكالعادة، الأسئلة كما تعوّد عليها، اسمك.. عمرك.. في أيّ جامعة تخرجت.. تخصصك الدراسي.. وقبل أن يكمل طُرق الباب..

دخل الشاب المترف مبتسمًا ووقف موظف المقابلات مُرحِّبًا بحفاوة، اقترب منه وهمس في أذنه وناوله الهاتف، انتهت المقابلة سنتصل بك.. مع السلامة.

أزمة سير..

كان الشارع مزدحمًا بالمارة؛ فالمدينة في الصباح مكتظة بالموظفين والطلبة والمتسوقين.. كان بلال يقود مركبته بهدوء رغم أنّه متأخرٌ عن مكتبه هذا الصباح وهذا يعني أنّه مضطرٌ لسماع الكثير من مديره الذي قرر أن يعمل مُراقب دوام أيضًا.

الحالة المرورية في هذه المدينة غير منتظمة كالمحيط الأطلسي؛ فهي هادئة مرّة وعاصفة مرتبكة في مرات أخرى، ممر المشاة يمتلئ بالمارة من طلبة المدارس.. هدّأ السرعة وأعطى إشارة الوقوف ليتمكّنوا جميعًا من العبور دون أذى، بدأ المارة بإلقاء تحية الشكر على هذا الشاب المهذّب، وابتسم لهم، صوت مرعب وهزة قوية أفقدت بسماته توازنها على وجهه، التفت سريعًا في المرآة، رجل يرتدي بدلة رسمية ويقود مركبة رباعية الدفع سوداء اللون يتكلم بهاتفه المحمول وتظهر على وجهه علامات غضب.. شرطي يقترب من بلال للاطمئنان على حالته، يحاول بلال فتح الباب إلّا أنّ الضربة جعلته ملتصقًا بهيكل السيارة، يفتح الشبّاك ويقول للشرطي..

: أنا أقف تمامًا أمام ممر المشاة وهو يتكلم بهاتفه المحمول ويتسبّب بالحادث.

يتوجه الشرطي للسيارة السوداء، يطرق على شبّاكها، يفتحه الرجل الغاضب ببطءٍ شديد، يسأله الشرطي عن حديثه بالهاتف وتسبُّبه في الحادث، يهمس للشرطي.. ويتحرك بسيارته مسرعًا.. يتوجه الشرطي نحو بلال طالبًا منه المغادرة فهو يُسبِّب أزمة سيرٍ في المكان.

انقسام..

مُتّكئة على عصاها اليابسة التي أكلت الطرقات والأرصفة وأحجار الشارع بعضًا منها، توجهت أم محمود نحو جمعية البرّ بأسر الشهداء والأسرى لاستلام مؤنتها من الحمص والعدس والطحين والسكر.. ليلة أمس وبعد صلاة العشاء سمعت صوت منادي يعلن عن توزيعها هذا اليوم، كانت أم علام وهي أمٌّ لشهيدٍ أيضًا تسلك الطريق ذاتها للوصول إلى المكان ذاته، تقابلتا على مفترق طرقٍ وسط الشارع، بعد إلقاء التحية بدأت أم محمود بالشكوى من حالتها فأبناؤها محمود ومناضل استشهدا قبل ثلاثة أعوام، وآخر أبنائها وأصغرهم عامر محكوم عليه بالسجن المؤبد ست عشرة مرّة لقيامه بعمله الفدائي..

حين وصلت العجوزان إلى شبّاك التوزيع تقدمت أم علام لتستلم حصتها.. منتصر صديق ابنها الشهيد سهّل لها الأمر وأوفى لها الكيل.

تقدمت العجوز أم محمود من الشبّاك بعد أن فحص الموظف المختص بطاقة الاستلام، نظر إليها بطريقة مختلفة هذه المرّة، توجه نحو موظف آخر وتفحصا البطاقة معًا، عاد نحو شبّاك التوزيع وسألها..

: حاجة أم محمود عرفتِ أنه في انقسام بين فتح وحماس؟

هزّت العجوز رأسها المثقل بالكثير كمؤشر على المعرفة: عرفت يا يما!

قطع حوارهما موظف التوزيع على الشبّاك الثاني، اقترب منه وهمس في أذنه!

: سامحينا يا حاجة هالمرة ما إلك اسم في الاستلام!

فأتمها... عشرًا..

وقف على باب الطائرة مُلقيًا نظراته نحو المودعين وكأنه كعادته يعلم ما خفي.. وكأن مناديًا ناداه أنّها رحتلك الأخيرة فأطلْ الوداع... بفيضٍ من قُبلٍ وبدمعتين غطتا وجهه المجعد بتضاريس غزة والجليل.. وفي لحظة ما وهو ينظر إليهم بدأ شريط الذكريات يدور في رأسه المتعب من سم لا هوية له ومن خيانة مجهولة ومن شماتة الكارهين للحرية.. كان فراقها يتعبه أيضًا، لاسيما وهو يستشعر موتًا ما يقف بانتظاره هذه المرّة مع جوقة الشرف العازفة والجند المستعدين لتحيته كما يستقبل القادة.. ذكرياته كانت تشكل أرشيفًا شعبيًّا ورسميًّا.. كانت تشكل تاريخًا عربيًّا ودوليًّا.. ذكرياته رسمت تاريخ شعب كامل.. كيف لا وهو صاحب الرصاص في عيلبون وزعيم الكلمات على منبر الأميين حين كان للأحرار كلمة. في شريط ذكرياته موت وحياة.. في شريط ذكرياته حيفا ونابلس.. في شريط ذكرياته أوّل بندقية حملها وآخر ورقة وقّع على طرفها لعجوزٍ عقّها أبناؤها فمنعوا عنها الدواء لغلو ثمنه فكان بها بارًّا عطوفًا.. في ذكرياته الآن رفاقه الشهداء يحاول أن يتذكر آخر كلماتهم.. فهو على موعدٍ معهم.. يرتشف جرعة ذاكرة قوية من رائحة الدم.. دم في كلّ مكان.. لم يعد يتذكر رائحة الحبر المغشوش الذي خطت به كلمات السلام.. قال لهم حينها مُحذِّرا لا تُسقطوا الغصن الأخضر من يدي.. كان يحذر قادة العالم الذين أعجبتهم شجاعة قائد لا يملك إلّا شعبًا من الأحرار كما أطلق عليهم.. تذكر كلّ خصومه الذين اختلفوا معه ولم يختلفوا عليه..

أُغلق باب الطائرة واستمر يُلوّح لهم من النافذة البيضاوية الصغيرة... رغم جسده المنهك وما اعتراه من هزة برد شديدة، وبصوته الذي أصبح صوت فلسطين وبعد أن وضع يده على خصره مُتفقِّدًا.. لم يجد مسدسه.. "وين المسدس" قال لهم...

نظر بعضهم إلى بعضٍ وقالوا: "يا سيادة الرئيس أنت منهك وخشينا أن يثقل عليك حمله"... فقال: "هاتوه فالثائر إن غاب عنه سلاحه مات مهزومًا".. حاول أحدهم أن يشرح له أنّه لا يرتدي البدلة العسكرية كعادته منذ أربعين عامًا.. فأسكتوه.. فكيف للنسور أن ترضى بقدرها بعيدًا عن علياء السماء.. في منتصف الرحلة أبلغوه أن شارون يخطط لإبعاده عن فلسطين.. ضحك من قولهم وأجاب: هو لا يفهم التاريخ.. سأعود إلى الجليل والقدس في المرّة المقبلة..

في اليوم الأخير وكان قد قارعته لحظات الموت فهزمها حتّى آخر جولة، أشار إلى مرافقه فتقدم نحوه.. بصوته الذي بالكاد يُسمع طلب منه أن يحضر البريد فأوجاع الناس فيه وهمومهم مكدسة بين طياته.. أشار عليه أحد المرافقين بضرورة الراحة فسأله: "كيف هو صباح القدس هذا اليوم؟" فأجاب: "إنّها بانتظارك يا فخامة الرئيس".. سأله عن الأسر هذا الصباح.. فأجابه يرقبون الفجر.. سأله عن عدد الشهداء هذا اليوم فأجابه المرافق: إنهم تسعة شهداء يا سيادة الرئيس.. فكأنه فهمها.. وبصوت متخافت قال: "فأتمها عشرًا"...

رؤية..

أعياني التفكير ليلتها فذهبت للنوم علّي أجد فيه من الراحة بعد أن ضاقت بي أرض التفكير الواسعة.. في الساعات الأخيرة من الليل.. في منتصف الحلم جاءني كعجوزٍ متعب، أسمر الجبين طويت جبهته من حزن تجاوز عمره آلاف السنين، رأيته خائفًا.. وحيدًا.. تائهًا.. دامعًا.. حزينًا.. أصابته صدمة ما.. وألمّ به الألم، كان مكلومًا.. منهوب الإرادة... غارقًا في الحيرة والهم معًا، كان ينظر إليّ بعيون عزيزٍ قُهر.. مفعمٌ بغصات لا تقال وأغلال ثقال، وبرغمها كان صلبًا كجبل شامخ لا يعرف انحناءة الظهر أبدًا.

مع اتضاح رؤية الوجه الموصوف بدأت أشعر بما يعتريه من قهر، فبرغم ما بلغ من قهر الضعف وما شابه من قشعريرة المستغيث كانت تعابير وجهه المجعد بالسنين والمتعب بطول الانتظار مقروءة، فلغته مفهومة وحروفه بارزة وكلماته منطوقة وغير منطوقة، كان أبًا شيخًا كبيرًا يتّكئ على عصا نخرتها سوسة الأيام ذاتها، بدت عيناه شمسًا تشرق رغم كسوفها البيّن، أراد أن يقول شيئًا ما ولكن الكلمات غير مسموعة، أشار بيده نحو الأرض.. نحو شجرة زيتون.. نحو السماء.. نحو قبر فيه شهيد.. نحو شاطئ حيفا وبيارات يافا وزهر اللوز في جنين، لم أفهم مراده من تلك الرموز... أفزعني ذاك الحلم و أفقت في ساعتي.

في كلّ ليلة يأتيني على هيئته تلك كعجوز متعب يرفع عني الغطاء ليشعرنا بحاجته إلينا.. كأنه يتعمّد إيقاظي من نومي، كأنه يقول لي: هيا استيقظ كي أقوى بك.. كن بقربي.. ألم يزدك النوم تعبًا في البعد عن حضرتي؟ ألا تستأنس في زاوية من زو ايا قلبي؟ وكأنني سمعته يسألني مطمئنًا: أتتركني وحيدًا في وجعي وضعفي؟

لونه المخطوف كلّ ليلة يصيبني بغصة قلبية، صوته المختنق وزفيره المتقطع يحزن وجداني، اعتدت أن أرى الكبار في نومي عجوزًا شامخًا.. دافئًا.. ناصعًا.. مشرقًا مزهرًا.. مطمئنًا.. وهو اليوم مدين.. حزين وحيد.. مسروق.. مجروح.. كادح.. وعيناها تنطقان كما كلّ ليلة أما آن لك أن تصحو من نومك! فأصحو فزعًا.

بعد أن أصر عليّ الحلم كلّ ليلة ذهبت إلى شيخ مسجدنا وقالوا أنّه مُفسِّرٌ جيِّدٌ للأحلام، قصصت عليه الحلم وطلبت منه أن ينبئني بتأويله إن كان من المحسنين، فدمعت عينه وقطبت جبهته وارتد وجهه حزينًا بائسًا، وأسند ظهره المقوّس إلى جدارٍ خلفه وقال: يراودني ذات الحلم وأظن عجوزنا يا ولدي هو القدس فإن رأيتها فقبِّل الجبهة والكفين وذكِّرها أنّ النصر صبر ساعة.

محاولات..

جلست بالقرب منه، حاولت أن تثير انتباهه بكل أنوثتها، على الكنبة البيضاء والبرتقالية أسندت ظهرها، وضعت رجليها المكشوفين بعضهما فوق بعض، وحفلة من الروائح تنبعث منها، عطرٌ على الرقبة، رائحة مُعطِّرٍ دهنت جسمها الجميل به بعد حمامٍ دافئ، رائحة مُعطِّر اليدين وحتّى رائحة شعرها كانت مدعوةً لحفلة الروائح تلك، عيناها الواسعتان الملوّنتان بعدستين شهيتي اللون كانتا عنوانًا آخر يُستدل به على أنوثتها هذه الليلة.. كانت مفعمةً بأنوثتها بكل ما قال الشعراء ووصف الخطباء.. ربّما أنّها أجمل من يوم رآها أوّل مرةٍ وقرر أنّها تستحق أن تكون زوجةً له.

كان يجلس على الكنبة ويتّكئ بظهره أيضًا واضعًا رجليه بعضهما على بعضٍ في محاولةٍ منه لإكمال تصفُّح الجريدة اليومية مع فنجان قهوته المسائية، قالت في نفسها وهو غير آبهٍ بوجودها..

: لربّما يخطفه حضوري فأنا كالفراشة حين تحط بين الأغصان..

بدا منهمكًا أكثر في قراءة الصفحة الثالثة منها.. كلّ ما كانت تفعله تلك المسكينة من حركاتٍ وسكناتٍ كان يُقيّد في خانة التحرش، والتحرش قدر الاستطاعة، تبتسم.. تضحك.. تلعب بخصلات شعرها الموج كالبحر اللامع تحت الشمس، تحرك رجليها بعضهما فوق بعضٍ بالتناوب، تحرك بإصبعها على شفتيها الكرزيتين، تسند ظهرها للكنبة، تنحني في خطوة استفزازية، وهو.. لا يعيرها اهتمامًا.. فقط يقرأ في الجريدة.

وبعد أن أعيتها الحيل و انتهت ثورتها دون تحقيق نتائج كما هي الثورات العربية، وبعد أن أصبحت خياراتها محدودة كخيارات الكثيرين من الساسة اليوم، وفي لحظة يأس دامسة، نظرت إليه يبتسم، وينظر إليها، ثم يعاود النظر إلى الجريدة ويبتسم، ويكررها غير مرّة، وأخيرًا تتشقق شفتيه عن ضحكةٍ بكلّ تفاصيلها الصوتية والحسية والحركية، أيقنت أنّه بدأ بالاستجابة، فالتغيرات واضحة، وجهه تهلل، اعتدل في جلسته، نظر إليها يبتسم، كلها مؤشرات، استجمعت خياراتها ثانيةً وأعادت حساباتها الإقليمية، ومعادلة "توازن القوى" لديها.. لم تتسرع باتخاذ القرار ولكن لا بد من الكلام الآن..

: عجَبتك؟

: فش بعد هيك.

: تسلم حبيبي.

: بس من زمان لازم هيك يصير!

: طبعًا حبيبي.

: والريحة طالعة ومش عارف شو رح يصير.

: كثير حلوة واخترتها لأنك بتحبها.

: لا وكمان كله عالمكشوف.

: أحلى هيك.

: ورح يكون في انبساط من الكل.

بخجل..

: أكيد.

: مش عارف لوين رح نوصل بهالحالة؟!

تحمرُّ خجلًا وتنتظر أن يغازلها، ما زال منغمسًا يقرأ الجريدة ويرمقها بنظرات خاطفة أحيانًا.

: من زمان ما سمعت منك هالكلام الحلو.

يرفع رأسه من الجريدة وينظر إليها باستغراب وكأنه يحاول أن يفهم الجملة الأخيرة!

: أنا بحكي عن الاجتماع العربي أوّل خبر في الجريدة!

يوم واحد من السعادة..

مثل كلّ صباح وبعد أن تناول عطية فطوره السنوي والمكون من صينية الكبدة واللحم المشوي بالفرن، بدأت حملة الاستحمام المرتبط بصباح العيد، وهنا لا بد من تشكيل لجنة تنظيمية لدراسة الحالة..

أحمد دخل الحمام.. راجي يقوم بكي ملابسه.. فواز يفك الغلاف عن قميصه المقلم الجديد.. وعوني ما زال ملتصقًا بالفراش فهو يرى أن العيد فرصة سنوية للنوم.. عطية وكان قد حاز على حمام ماء دافئ منذ الصباح توجه نحو خزانته وبدأ يتأمل ببدلته الزيتية التي كان قد أرسلها لمحل غسل الملابس مع القميص الأبيض لتكون لباسه لهذا اليوم.. بدأ يفكر في اللون الأنسب لربطة العنق الوحيدة التي يمتلكها فحتى تلك -وهي الوحيدة- لديه خطط بشأنها.

بعد أن أغلق عطية آخر أزرار قميصه الأبيض وتأكد من أنّ جميع الأولاد قد أصبحوا جاهزين لرحلة العيد المكوكية نحو الأهل والأقارب، دار النقاش المعتاد في مثل هذا اليوم..

: من وين نبلش أوّل؟

وهنا تشتّتت الآراء.. فواز وعوني اقترحا أن تبدأ الرحلة من بيت عمتهم ابتهاج لأنّها الأقرب، فيما اقترح أحمد أن تكون البداية من بيت الحاجة جميلة وهي عمة عطية اللزم.. وراجي كالعادة ممتنع عن التصويت.. قرار عطية ككل عام..

: رح نبدأ من بيت جدكم مسعود.

في رحلة العيد السنوية ستتكرر مع عطية كلّ الأحداث.. حتّى إنّها تتطابق.. ففي كلّ بيت سيقوم بتسلم حفنة من القبل الممزوجة بطعم الكبدة التي أفطر الجميع عليها..

في كلّ بيت سيكون عطية مجبرًا على شرب فنجان من القهوة وفي كلّ مرّة عليه أن يقول: "والله قهواتكم ممتازات من وين جبتوهن؟!" وهو أعلم بالإجابة..

عطية أيضًا مجبر على أن يتذوق كعك العيد في كلّ البيوت وعليه أن يصدر رأيه الإيجابي دائمًا: والله أحسن من كعكعاتنا لو أنك تعلمي أم فواز كيف تعمل الكعك.

عطية سيحفظ رقمًا ثابتًا هو عدد حبات الملبس والشوكلاتة التي سيكتظ بها جيب بدلته الزيتية.. وعليه أن يحفظها لأم فواز التي ستعرف من خلال الرقم النهائي عدد البيوت التي دخلها وستكون قادرة على تحديد المستوى الاقتصادي لتلك البيوت من خلال نوع الضيافة المقدمة، وتبدأ الأسئلة المعتادة..

: من وين حبة البون بون هاي.. انو مقمدلكم حبة التوفي هاي.. انو الي وزع عليكم ملبس؟

وحين تنتهي التحايا والسلامات ورزمات القبل المرصوصة بطعم الكبدة تبدأ المحادثة المعتادة، وعادةً ما تكون حول آخر حدث سنوي عايشه عطية..

: والله السنة مطرت بدري..

: آه والله منيح عشان الزيتونات.

: بس بقولوا في موجة حر عالطريق؟

بعد أن ينتهي عطية من حالته الجديدة كراصد جوي ويصمت الجميع ولا يبقى مكان للكلام يتذكر أن أحد أفراد العائلة قد نجح في الثانوية العامة قبل شهرين، وهنا ينظر عطية إلى ذاك الو اقف بالكاد على ضفاف النجاح..

: والله معدلك ممتاز شو قررت تدرس؟

وفي داخله يقول "بهالخمسة وستين بدك تدرس كيماوي مثلًا!"

: قدمت لأربع جامعات ولسا ما بعثولي قبول..

: آه بتأخروا شوي..

وعطية في داخله يقول: "يعني هو انت جايب معدل متل هالناس ليقبلوك"...

ينتهي الحوار ويفتح حوارات أخرى عن مازن الذي اتصل صباحًا من سجن شطة، وعن محمود الذي لم يستطع أخذ إجازة من عمله في الإمارات، وعن مرام التي زارت قبر زوجها الشهيد وقطعت قلوب أم محمد التي تسكن بجانب المقبرة.

يقرر عطية ومر افقوه التحرك فتكون العبارة المعتادة..

: بدري.. ما شفناكم بعدنا!

: ما انتو عارفين زيارة عيد وبدنا نروح عالجميع.

يلبس الجميع أحذيتهم فيما فواز حمل الفردة الثانية من حذائه الجديد الضيق ليلبسها على حافة حجر في الشارع.

ينتهي يوم العيد بعد زيارات مكوكية لعطية ومر افقيه الأربعة ويبدأ بعدها حصر الغنائم والخسائر معًا.. ويستعد عطية لزيارة جيرانه، أبو مصعب و أبو رياض و أبو زياد ودار العبد المحمود بعد أن قدمت زوجته كشفًا كاملًا بمن زارهم هذا اليوم.

"جميلة أعيادنا فيها من البساطة ما فيها وفيها خصوصية لا يمكن أن تراها إلّا هنا في فلسطين؛ فرغم كلّ الآلام والأوجاع التي تسكن صدورنا ورغم أوضاعنا المعيشية والاقتصادية والسياسية المتردية غالبًا، فإنّنا قادرون على أن نضع بصمة سعادة في هذا اليوم، فالسعادة والفرح حق مكتسب في هذا اليوم ففيه خذوا من السعادة ما استطعتم إليها سبيلًا، اسرقوها.. صادروها.. حتّى لو كانت مزورة أو منتحلة فهذا غير مخالف للقانون، فنحن أحوج ما نكون للسعادة حتّى لو ليومٍ واحد".

رعي جائر...

أعطى عطية الأمر لرعاته الخمسة بالتحرك بالقطيع نحو السهل التحتاني من أجل قضاء شهر الرعي السنوي هناك..

قطيع عطية الكبير الذي كان يضرب به المثل لضخامته تجاوز في مجمله المائتي رأسٍ من الغنم والعشرين رأسًا من الماعز ذات الأسنان القوية المهلكة للزرع والضرع..

توجه الرعاة قبل الفجر حتّى لا تصيبهم شمس الضحى الحامية فتفسد عليهم رحلة الربيع والخافور السنوية..

مع ساعات الفجر وحين كان الحاج أبو فلاح يهمُّ للخروج لصلاة الفجر كان عطية وقطيعه المئوي ورعاته الخمسة بموازاة أرضه التي أينع خضارها ببحر مموّج من السمسم المصنف بالأفضل على مستوى المنطقة؛ فأبو فلاح يعرف عنه أنّه أقام علاقة أبدية بين السمسم وبين أرضه الممتدة لعدة هكتارات..

عطية وفي وسوسة شيطانية تذكر ما قاله أبو فلاح له يومًا من أن أرضه كلّ عام تخرج أكثر من عشرين طنًا من السمسم الصافي؛ فتحركت في قلبه حسرة الحاسدين ونار الناظرين إلى ما في أيدي الآخرين من النعم والأرزاق؛ وحينها، ولأنه صاحب الكلمة الأقوى بين رعاته وعنزاته جميعًا قرر أن يحرك قطيعه ليلتهم زرع أبي فلاح قبل أن يؤتي حصاده بالأطنان الموعودة..

وقبل بزوغ الشمس من مشرقها كانت أرض أبي فلاح خاويةً على عروشها كأنما أتاها حسبانٌ من السماء فتركها صعيدًا زلقًا.. عطية -وكي يخفي جريمته البيئية الاقتصادية تلك- كان لا بد له من إكمال طريقه والفريق المرافق إلى أرض السهل التحتاني التي تبعد عشرات الكيلومترات عن أرض أبي فلاح التي حلت بها الفاجعة... وفي ساعات الظهر كان عطية وجيشه البشري والحيواني قد ضربوا خيامهم واستقروا على الأرض الموعودة.

بعد شهر ونصف من الرعي، وحين بدأ عشب الأرض يضربه لون الشمس الصفراء من شدة ما رعته أغنام عطية، وحين سقطت جريمة عطية بالتقادم فلا يشار إليه بالبنان، بدأ القطيع بالتحرك إلى موطنه الأصلي. وفي طريق العودة وحين تلألأت الأراضي وتباهت بخضارها الجميل كان قلب عطية يخفق فرحًا كلما اقترب من أرض أبي فلاح المنكوبة؛ فالجريمة كانت قبل بزوغ الشمس ولم يتمكّن حينها من ملء عينيه برؤية الخراب الذي حلّ بها.. وفي مشهد خرافي فقد كانت الأرض المنكوبة افتراضًا أكثرهن خضرةً وارتفاعًا، وكأنما أحياها الله بعد موتها، وكأن عروق السمسم أصبحت غابات عالية شاهقة.. وحينها وفي لحظة غضبٍ ربّما هو الأعنف في هذه القصة، أطلق مقولته الشهيرة "هو الي ربنا بدو يغنيه عطية رح يفقره؟!".

أخطأت الأغنام ودخلت حقلًا آخر...

"خرمنجي" دخان..

في مساء حزيراني مقمر، وعلى ضوء القمر المكتمل، كان مراد وثلة من كبار السن يتسامرون في بيدر القمح القريب من بيت الحاج صفوان، حكايا مغامراتهم التي مات شهودها هي العنوان الأبرز لتلك الجلسة العتيقة، أبو صدقي وأبو مصطفى كانا يتهامسان بما يوحي أنّ هناك مؤامرة ما، أبو مصطفى مد يده إلى جيب قمبازه الرمادي، ضرب عليه كمن يبحث عن شيء ما، لم يجد ضالته فنفض قمبازه خيطًا خيطًا في غرته وكبده وأخرجه، أسعفه أبو صدقي بسؤال مصطنع:

: على شو بتدور يا "أبو مصطفى"؟

: بدور على علبة الدخان.

مستمرًا في بحثه مع كيل للشتائم على شيطان النسيان.

أبو صدقي في أوّل خطوة لتنفيذ مؤامرة دبرت بليل..

: خذ لك من الحاج مراد سيجارة ترا هو "خرمنجي" دخان وبعرف طعم ثمه.

مراد وقد أصابته موجة زهو، رافعًا رقبته جامعًا قمبازه المترهل ومبتسمًا..

: آه والله معي اليوم دخانات من زريعة أرض الواد مرويات من المطر هسا بلفلك سيجارة وادعيلي.

بعد أن قام بجمعها ولصقها بطرف شفاهه قام مراد بتقديم السيجارة الموعودة للحاج أبي مصطفى منتظرًا منه إبداء الرأي، في تلك الأثناء كانت خيوط المؤمراة قد اكتملت وبدأت بالفعل، ففي لحظة من انغماس مراد مع مصطفى المحمود وعادل العواد وأبي صفوان في نقاش ساخن وطارئ حول الأوضاع السياسية في البلد.. كان أبو مصطفى يهرب سيجارة مراد إلى علبة أبي صدقي الذي أعطاه بدوره سيجارة من علبته السوداء الجلدية التي وضع

فيها بعض سجائره، وميز سيجارة مراد بوضعها على الزاوية اليمنى من العلبة، وحين انتهاء الخطة كان مراد قد سأل أبا مصطفى عن السيجارة التي أخذ دخانها يملأ الأفق..

: آه كيف هالدخانات طمني أكيد عجبوك، بقلك من أرض الواد يعني مسقيات من المطر.

: الصراحة دخاناتك فش بعدهن الصحيح إنك فعلًا "خرمنجي" دخان.

ونظر إلى أبي صدقي مبتسمًا بنصف فتحة.

وهنا أدخل أبو صدقي يده إلى جيبه الداخلي وأخرج منه علبه السجائر مُوجِّهًا كلامه لمراد.. : خذ ذقلي هالدخانات جبتهن اليوم من دكانة "أبو فاطمة" بقول أنّها زريعة "أبو سليمة".

: أبو سليمة! (ساخرًا)، هات هات قال "أبو سليمة" قال. (مع حركة الرأس المعروفة).

أشعل مراد السيجارة وعيناه ترتكزان إلى مقدمتها كأنما يفحص درجة الاشتعال أوّلًا، وفي نفَسه الأول بدت عليه مظاهر المنكِر للطعم..

: تف تف، الله يكسر إيديك يا "أبو سليمة" على هالدخانات، والله ما تقول إلّا نشارة خشب، جاي تقلي دخان!

: يعني دخاناتك أحسن منهن يا مراد؟

: قال أحسن قال، شو جاب لجاب بقلك نشارة خشب، انت معذور شو بفهمك بالدخان.

هنا تدخل أبو مصطفى وسط ضحك الجميع.. : الله لا يعطيك العافية، وبتضحك علينا وبتقول "خرمنجي دخان"، هالسيجارة هي سيجارتك الي أعطيتني إياها قبل شوي!

وجه مراد أصبح كلون رماد سجائره الأسود وسط ضحك الجميع.

حكاية بنهاية مختلفة..

رائحة الفحم المشتعل المختلطة بما انسكب عليه من قهوة الدلات كانت رائحة المكان.. كانت ليلة شتوية باردة والمكان هنا دافئ بالجميع يشعلون سجائرهم دون رحمة، أبو ماجد يخرج من جيبه كيسًا به بعض التبغ المقطع المزروع في أرضه، بعد أن جففها وقام بفرمها في مفرمته اليدوية وضعها في كيس يلفه عدة لفات قبل أن يخرج منه مجموعة من دفاتر السجائر الرقيقة التي اعتاد عليها منذ أكثر من ستين عامًا.

يداه المرتجفتان لا تمنعانه من التقاط التبغ المفروم في ورقة السجائر، تساقطت بعض الحشوة ولكنها في المجمل متماسكة لا تضيع سدى، كان أبو قصي بجانبه يراقبه بانتباه ويقطع عليه الحديث الذي بدأه منذ أن وصلا إلى المكان..

: هو انت بعدك بتدخن يا "أبو ماجد"؟!

أبو ماجد وهو يلصق السيجارة المصنعة محليًا بشفتيه المهترئتين، ويحاول مجهدًا أن يخرج لسانه مبللًا بلعابه الجاف..

: آه ولا هو انا بتركه...

مع محاولة التركيز في سيجارته الموعودة.

أبو عزمي ضاحكًا: "والله غير تموت حالك و انت تدخن قديش نصحتك تتركه بس شورك من راسك".

: والله ما بتركه ليش اتركه هو انا بعرف!

وبدأ بالتركيز هذه المرّة لإشعال النار في السيجارة.

: أنا نصحتك و انت حر، خلينا نرجع لخرافنا، قلتلي أكل ونام وبعدها كيف مات؟

في الطرف الآخر من قاعة اجتمع فيها قرابة خمسين من وجهاء العائلة من كبار العمر بعد أن قاموا بمراسم دفن الحاج "أبو الكامل"، وكعادتهم اجتمع كلّ رأسين منهم على حدة.

أبو سعد وفي صوته المتقطع بفعل السعال المتواصل..

: الله يرحمه ميّل علي وانا بالوطاة وقلي العوافي يا غانمين.. (فاصل سعال).. قلت له تفضل يا حاج متعب قال لا والله بدي اوصل الوطاة الفوقانية بقولوا القواريط سرقوا اللوزات.. (فاصل سعال شديد)...

أبو بهجت وقد تساقطت مكونات سيجارته المحترقة على ثيابه وبدأت تفتح ثقوبًا فيه دون أن ينتبه..

: اتصلت البنت على أمها بتقول "عمي أبو كامل" مات كنت وقتها حاطط اللقمة بثمي.. قلتلها الله لا يوفقك على هالخبر.

وانتبه لسيجارته لينفض ثيابه قبل أن تُلحقه بأبي الكامل حرقًا.

في زاوية الديوان جلس عطية النصاب وبجانبه أبو باسم صاحب البقالة الوحيدة بالقرية..

: يا "أبو باسم" رد علي بقلك الأرض على راس الجبل و"أولاد أبو كامل" بدهم يبيعوا خلينا نوخذلك اياها.

أبو باسم وقد شعر أنّه ضحية عطية الجديدة..

: لا ما بدي اياها لأنها جاي بالطول وما في عليها شارع.

في زاوية أخرى كان أبو طلعت وجاره أبو زياد يصمتان، لا صوت يخرج من هنا سوى صوت حبات المسبحة تنتقل بقسوة فترتطم الحبة بالحبة، وكلٌّ منهما ينتظر الآخر لكي يقول حكاية تكسر حاجز الصمت وتقدم رؤية جديدة تتطاير مع مجموعة الرُؤى المتطايرة في هذه القاعة المعجوجة بالأصوات، وفي لحظة ما قرر أبو زياد أن يكسر حالة اللاكلام واللاصمت مع رفيقه

بالصمت أبي طلعت.. حضّر حنجرته، أزاح رأسه مُقرّبًا إياه إلى جاره في إشارة إلى نية الكلام، استحضر أعلى طبقاته الصوتية، بدأ بالكلام..

: بقلك أبو الكامل كان عنده بالزمنات "خمسميت(٥٠٠)" راس غنم.

في لحظةٍ كان الجميع قد صمت وصوت أبي زياد هو الوحيد المسموع، الكل ينظر إليه، الكل مشدود لمعرفة مصير هذا القطيع الكبير الذي لم يسمع بقصته أحدٌ من قبل، أبو زياد يحرك نظره ليكتشف الفاجعة، الجميع ينتظر نهاية لتلك الأسطورة، عليه أن يجد حلًا ما، أصبح كمن يسقط من طائرة دون أن يفتح المظلة، وفي لحظة وجد الحل..

: والله وبقولوا باعهن...

وسكت وسط استغرابهم جميعًا من هذه النهاية غير المتوقعة...

أحلام خارج النافذة..

غادر منزله الذي ساهمت وزارة الإسكان في نصف تكلفته؛ فهو مواطن عادي واستحق الدعم الحكومي لبناء منزل واسع كما هو الحال في كثير من دول العالم...

ودّع زوجته التي تفرغت للعمل في البيت فراتبه الحكومي يكفي لإعالة العائلة، وتغطية أقساط المنزل والسيارة ويبقى فيه الكثير من المدخرات للمستقبل..

ركب في سيارته وقام بتشغيل محركها الضخم، فرغم نصيحة أصدقائه باقتناء سيارة صغيرة الحجم فإن وجهة نظره مختلفة؛ فالمحروقات هنا منخفضة التكلفة فلا داعي لأن يُضيّق على نفسه وعائلته..

انتظر في السيارة إلى حين خروج ابنه وابنته اللذين يدرسان في جامعة حكومية مجانًا؛ فالحكومة هي من يتكفّل بالتعليم هنا وعليهم فقط أن يجتهدوا في دراستهم للحصول على فرصة عمل مناسبة، أغلق النوافذ وقام بتشغيل المكيف وتحرك بالأبناء إلى جامعتهم القريبة، ودّعهم بقبلتين فمن المقرر أن يذهب في زيارة عمل عبر المطار المحلي إلى العاصمة القدس، وهي رحلة لن تستغرق سوى نصف ساعة من هنا..

ولكنه مضطر للوصول إلى مكتبه قليلًا لتحضير بعض الأوراق والقيام ببعض الأعمال، وخاصةً فيما يخص مشروع المدينة الصناعية الجديدة التي ستقام في مدينة الخليل بتبرع من مؤسسات اقتصادية فلسطينية وشراكة حكومية...

اجتمع بفريق العمل الخاص بالمشروع وقرروا الانطلاق عبر مطار جنين المحلي نحو مطار القدس الدولي، وحال وصوله المطار بدأ النداء الأخير على ركاب الرحلة ٢٢ على متن الخطوط الجوية الفلسطينية المتجهة نحو مطار القدس الدولي...

توجه نحو موظف يرتدي بدلة رسمية سوداء ويُعلِّق على صدره بطاقة تعريف "ضابط جوازات" وهو الفلسطيني المسؤول عن تنقل الفلسطينيّين عبر بوابات المطار الثلاثة، انتهت إجراءات التفتيش بشكلٍ سريعٍ فهنا يكفي أن تكون فلسطينيًّا حتّى تحظى بمعاملة كبار الشخصيات في الجهة الأخرى من البوابة المخصصة لغير الفلسطينيّين...

كانت الطائرة بوينج ٧٠٧ بيضاء اللون كتب على جسدها الطويل عبارة "الخطوط الجوية الفلسطينية" ورسم العلم الفلسطيني على الجناح الخلفي للطائرة، صعد الجميع سلالم الطائرة التي تتسع لمائة وسبعين راكبًا وأغلقت أبوابها وبدأت محركاتها الأربعة بالدوران، صوت المضيفة الجوية كانت تنقله السماعات المركبة فوق الركاب عبر جسم الطائرة الطويل الذي تجاوز الأربعين مترًا، "أهلًا بكم على الخطوط الجوية الفلسطينية عبر رحتلنا المتوجهة نحو القدس الشريف، مدة الرحلة نصف ساعة، سيكون الوصول في الساعة ١١:٣٠ صباحًا، الطائرة الآن تُحلِّق على ارتفاع ثلاثة أقدام ودرجة الحرارة في الخارج هي خمس عشرة تحت الصفر، نرجو أن تقضوا برفقتنا وقتًا ممتعًا، يمكنكم الآن فتح أغطية النوافذ وفك أحزمة الأمان"..

رفع النافذة ليستمتع بهذا العلو الشاهق مخترقًا المكان بالتفكير في أين سيقضي مع عائلته إجازة الصيف القادمة؛ فقد زار كثيرًا من العواصم وهو بحاجة لرحلة استجمام داخلية يتمتع فيها بشواطئ البحر الميت أو في المنتجعات السياحية التي أقيمت في سفوح الجبال الفلسطينية..

قاطعه صوت المضيفة التي كانت ترتدي زيًّا فلسطينيًّا تقليديًّا وتضع بطاقة تعريف يعلوها العلم الفلسطيني واسمها الأول "نور"، ابتسامتها الجميلة كانت أوّل ما بادرت بقوله وأكملت..

: ماذا تود أن تشرب يا سيدي؟

: هل يمكن أن أرى قائمة المشروبات؟

: بكل سرور.

نظر إلى القائمة وتنقل بين صفحاتها الثلاثة إلى الصفحة الأخيرة "العصائر الطبيعية" وضعت جانبها عبارة "صناعة فلسطينية"، تنقل عبر الأسعار فوجدها أكثر تكلفة أو توازي تلك المستوردة، طلب له عصير برتقال وبجانبها زجاجة ماء "النبعة" المصنّعة في فلسطين. ناول المضيفة قائمة المشروبات فشكرته بأدبٍ ولطفٍ وابتسمت مستمرةً في التنقل بين المسافرين.

صوت قائد الطائرة: "نحن الآن نحلق فوق مدينة الشهيد ياسر عرفات الاقتصادية، إنّها تحفة من العمارة الفلسطينية، يمكنكم النظر عبر النوافذ لمشاهدة المنظر الساحر".

نظر عبر النافذة. منظر رائع اعتاد على مشاهدته في رحلاته المتعددة دون أن يمل منه، مدينة متكاملة تتنوع بين الشركات المحلية وإدارة الشركات العالمية ومراكز التسوق والبحث العلمي ومركز للدراسات الاقتصادية، من هنا تخرج السياسات الاقتصادية للوطن ومن هنا أيضًا توضع اللمسات الأخيرة على شكل الموازنة الحكومية السنوية...

صوت المضيفة الجوية مرّة أخرى: "سيدي تفضل عصير البرتقال والماء، المبلغ عشر جنيهات فلسطينية".

فتح محفظته ودفع الثمن، حمل قارورة الماء أوّلًا، أعجبته الألوان التي تجسد السماء وخضرة الأرض التي رسمت على القارورة.. "صنع في الخليل"، تأمل القارورة ثانيةً وبدأ بهز رأسه بما يعبر عن إعجابه، عبارة كتبت بخط واضح "نصف تكلفة هذه المنتج سيتم رصدها لإكمال مشروع المستشفى الفلسطيني لعلاج الأورام في مدينة سلفيت، برقابة وزارة الاقتصاد وبعد موافقة المجلس التشريعي، يمكنك الاحتجاج على هذه السياسة وسيتم إعادة المبلغ المتبرع به إليكم عبر البريد، في حال رفضكم للفكرة يمكنكم الاتصال على رقم..."

: "نرجو ربط الأحزمة وإغلاق النوافذ استعدادًا للهبوط في مطار القدس الدولي".. (كان صوت المضيفة الجوية)، "الساعة الآن في القدس هي.."

رن جرس المنبه، فتح عينيه بتثاقلٍ كبير، نظر إلى الساعة، كانت السابعة صباحًا، أدار مقلتيه ليكتشف الأمر.. ما زال في فراشه.. عليه أن يسرع فاليوم هو موعد مناقشة مشروع إعادة تأهيل البيوت التي حرقها المستوطنون بالقرب من الجدار، إن لم يدرك الوقت فسيدركه، فالحواجز العسكرية ما زالت تعيق الطريق الواصل بين قريته ومدينته.

نتوق لطفولتنا..

فصول الطفولة كانت دائمًا أجمل، ربّما أن طيفًا ما زارني فتذكرت طفولتنا، الطفولة أهدتنا قلوبًا بِكرًا، لم يتعبنا حصاد الفكر والهم والانكسار، أفهم أن ما فجّر هذا الحنين لذلك الرخاء النفسي هو لحظة ربّما تذكرت فيها حالة طفولية، الشمس والحقول والشوارع والأزقة والساحات، والصف والمدرسة وطابور الصباح وملعب الكرة والتلفاز الخشبي، ومرمى كرةٍ حدوده فردتي حذاء وأخريات هي ذاكرة الطفولة، ولا أعلم لماذا ترتبط الطفولة دومًا بالفصول الأربعة، فلكل منها حكايته مع طفولتنا، وربما ولا أجزم أنّي تذكرت موقفًا ما في فصل الشتاء فانهمرت فيه غيوم الذاكرة حكايات طفولية أنسج منها تاج سعادة نفقده كلما تقدم بنا العمر في متاهة الحياة.

حين تسطع شمس الصيف نبحث عن ظلال الشجر، نحاول أن نجمع بعضه، رغم أن بيوتنا مليئة بالظلال فإنّ جدرانها المكعبة لا تريحنا أبدًا، فنحتفل بظلال شجرة زيتون حنونة تجمعنا معًا فنقرر أن نلعب لعبنا الصيفية تحتها، نحفر حفرنا الصغيرة، نتيه في لعبة الاستخفاء وبعضنا يبتعد إلى زقاق الحارات، نبحث عنه في كلّ مكان لنعلم لاحقًا أنّه لم يجد ظلًا كافيًا فقرر العودة إلى البيت.

حين يحتفل الحصادون بآخر سنبلة قمح صفراء كنا نعشق أكوام القمح "المدروسة" وقربها مكعبات الحصيدة التي صنعتها جامعات القمح الآلية، فنقيم منها غرفنا كما كنا نفعل بوسائد القش البيتية حين نبني بها بيوتنا الصغيرة ونحتفل بسكنها ويغضبنا هدمها على حين غرة.

كانت بيادر القمح المسفوك وطرقات الحارة الفرعية "سان سيرو" الطفولة، كنا نراه بحجم ملاعب ميلانو، وكانت جنبات الطريق التي بالكاد تتسع لخمسة مشجعين ولاعبين برسم طفولتنا كملعب الأزتيك المكسيكي، كانت الأحذية حدود المرمى شمالًا والحجارة حدوده الجنوبية، كان التعب هو نهاية المباراة التي تتكون دائمًا من شوط وحيد يسقط فيه المتعبون ويبقى الأكثر قوة ليكملوا رزمة أهداف أخرى، وكانت الشمس نظام الإضاءة الأوحد لتلك الطفولة، نحاول تثبيتها بخيط من القنب حتّى لا تغيب ويغيب معها يوم طفولي آخر، وكان غضب صاحب فردتي الحذاء سببًا مقنعًا دائمًا في إنهاء اللعبة، يحمل فردتيه تحت إبطيه كمن يحمل كنزه ويبدأ بالتفاوض على عدم احتساب هدف الخصم، وبين ثنايا المفاوضات وأهمية الفردتين تكون الحدود الجديدة لملعبنا في الزقاق.

حين يبلل المطر أطراف بنطالك الجينز الذي غالبًا ما كنا نتركه طويلًا علامة على أنّه ما زال جديدًا، كنت تعرف أن الماء سيتدفق الآن عبر حذائك، ستشعر ببرودة الأصابع وانزلاق الفردة اليمنى، فالطفولة كانت أن تمشي شتاءً تحت المطر وأن تبحث عن كلّ حفرة تجمعت فيها الأمطار سابرًا غورها بقدمك اليمنى لتخرجها مبلولة من غير سوء. للمطر في الشتاء حكايات بنكهة الفرح، كانت نكهة الشتاء مراقبة المطر الساقط من السماء والاستمتاع بصوت البَرَد يضرب على لوح من الصفيح، كانت مزجًا بين رسم القلوب وكتابة الأسماء على الشبابيك التي تكاثف عليها بخار كوّنه فرق الحرارة بين أنفاس الطفولة وبرودة الشتاء، شتاء طفولتنا مزج بين حبة مطر على أطراف زنبقة ناشئة وبين هز خصلة من شجرة سرو عظيمة تراكمت فوق أغصانها حبات المطر، ننتظر أحدهم حتّى الصبح تحت الغصن المشبّع بالمطر، نهزه، فجأةً تمطر الدنيا مطرًا استثنائيًّا على طفل دافئ يذهله برودة هذا المطر

المفاجئ.. فيبكي أو يضحك ونضحك.. طفولتنا كانت لا تخلو من خروج عن نصوصها البريئة لنكون عباقرة في إزعاج الآخرين.

الطفولة ربيع يعشق الربيع، ما أجمل انحسار البرد حين يكتسي ذلك الجبل بلون الربيع، أرضية مخضرة بعشب يبلله الندى ليلًا فيلمع في شمس الضحى لؤلؤًا منثورًا، ولا تكتمل اللوحة دون الخافور الزهري الذي يرسم وجهًا باسمًا على تلك السجادة الممتدة على السفحات المنخفضة، وكخدود الفتاة المكسوة بحمرة الخجل يزينها زهر السوسن الأحمر يهتز كلما زارته تلك الحشرات الطائرة التي تلمع خضارًا كلما لمسته خيوط الشمس، نفاجئها في الحنونة الحمراء، نحاصرها بين كفينا ونغلقها فُتمتعنا بحركة فطرية في محاولة منها للهروب إلى الحنونة المفجوعة شوقًا.

طفولتنا كانت بنكهة الفصول وإن كان الخريف أقلهن حظًا من ذاكرتي، كم أتمنى الآن أن أهز بيدي شجرة لوز مزهرة لأراها تمطر زهرًا أبيض، كم يمتعني أن أقطف حبات المشمش الخضراء من أعالي الشجرة، كم أتوق إلى أن أتوه ساعةً في حقلٍ للقمح الأخضر يغمرني فلا يأتيني الهم من أمامي أو خلفي، وكم أتوق أن أُحلِّق بطائرتي الورقية في فضاء الكون فلا يغتالني الخوف من الحياة من فوقي ومن تحتي.. كم نتوق لطفولتنا!

تحمله للمرة الأخيرة..

ها أنت تحملينه مرّةً أخرى، ها هو يعلو ولا يعلى عليه، يا قلبك المكلوم بهذا الفقد.. يا قلبك المموج بدمه ها هو مرّة أخرى بين العين والقلب، ضميه ما شئتِ.. اختلطي بما تبقى من روحه الصاعدة للسماء فالموت له لا يكتمل، يا أمه التي تحمله فوق رأسها المتوّج بشيب الوقار، هل قال لك الوصية و أقرأك السلام وبكى على صدرك كما يفعل الراحلون نحو المجد، يا أمه الكبرى يا رائحة المجد الباقية، يا شمس أيلول الدافئة، يا امتداد هذا الوطن، يا أيتها القديسة الأسطورية.

يا عالية الهمة لا تبكيه فهو عائد إلى منتهاه، ولكن حلمه لم ينتهِ فدفئيه كما كنت تفعلين كلّ ليلة.. شدي عليه الغطاء ودثريه.. اربتي على جبينه المدمي واحكي له حكاية الفرسان والجميلة، ما زال ينتظر النهاية فأخبريه، حلمه باقٍ فلا تقولي مات، ها هو يطوف فوق حيفا غيمةً وفوق القدس قطرة مطرٍ وفوق عكا نسمة بحرٍ تشرينية، وفي الخليل صوت أذانٍ وفي الوطن طيف كرامة.

يا عالية الهمة ارفعي في النعش فقد عز الر افعون، هذا مقام يحمل فيه الوطن.. فارفعيه وارفعيه فهو من طوى صفحة سكون الصمت، التفتي حولك يا غالية، هناك شهيد يمشي هناك شهيد يدعو وهناك شهيد يحمل بالنعش، هذا النعش علامة وطن يعود، حولك البسطاء الراغبون بالحياة من أجله جاءوا، إن جنّ هذا الليل فتصفحي ألبومه المصوّر فهو حاضر وهم غياب، أيها المحمول فوق النعش قد رحلت وما زال حلمك يأتيها، أيها الطامحون لغفوة سلام ها قد حقت لكم فانظرونا نلتمس من سلامكم المخضّب بالدم.

يا حاملة النعش أيتها الملوحة بشمس الشهداء لك المجد والكبرياء، لقد صهَلت خيل الفرسان فاسرجيها وأمطرت الغيم قمحًا فاجمعيه وانثري في الوطن حلم الشهداء، يا لوحة يرفع فيها المحمول الحامل.. ربح الحامل والمحمول.

"أم تحمل ابنها الشهيد"..

قصص قصيرة جدًّا..

مايا..

حملت حقيبتها المدرسية وقبلة أمها قبل أن تتوجه إلى المدرسة في يومها الأول بعد الحرب، وصلت إلى بداية الشارع الموصل في نهايته إلى المدرسة، كثير من المنازل المدمرة على جنبات الطريق، منزل صديقتها مايا المقابل للمدرسة كان حطامًا أيضًا، ولكنها كانت على أمل أن يجتمعا في طابور الصباح، وصل النشيد الوطني إلى "تبلغ السماك".. تلفتت إلى كلّ الجهات وصوت الأمل يخبو في كلّ نظرة، دخل الجميع فصولهم الدراسية، اعتادت على أن تجلس مايا على نفس المقعد منذ سنتين حين كانتا في الصف الأول، دخلت المعلمة حاملة لوحات عليها أسماء الشهداء من المدرسة، وضعت لافتة على الكرسي المجاور، الشهيدة مايا، احتضنت اللافتة وبكت.

موتٌ بصمت

بدأ بتحضير حقيبة الكتف، شهادته الجامعية، صورة أمه، صورة أخيه الشهيد علاء وبعض الملابس، بكاء أمه الذي كان يشبه غيمة سوداء خريفية الشكل كانونية البرودة، كانت عيناها برقًا غاضبًا لقراره بالرحيل عبر عباب البحر إلى شواطئ غريبة، فهي تعلم أن من يخرج إلى محطة المجهول سيصل إلى اللامكان، رفع الحقيبة على كتفه، مسح على جبينها وقبّلها ومضى إلى طوّافة الموت يحمل أحلامه، جلس على طرف الطوّافة بصمتٍ ووجهه نحو غزة، برقت عيناه بصمت، ضحك بصمت، تذكر بصمت، تألم بصمت، نام بصمت، أغمض عينه بصمت، حلم بأمه وبحلمه وبوداعه الأخير لشقيقه الشهيد، زفير البحر العالي أسقط منه النوم والحلم، تمنى أن يعود ليرتمي في أحضان أمه المفجوعة بفقيدين ووطن، ومات بصمت.

إحباط طائر الطنان.

أوّل ما قام به صباحًا هو فتح النافذة كما يفعل كلّ يوم، طائر الطنان الصغير كان يقف على فرع شجرة التفاح القريبة من النافذة، كان هادئًا لا يصدر أيّ صوتٍ وليس كالعادة، صوت هذا الطائر لم يصمت منذ سكن هذا البيت قبل ثلاثين عامًا، ابتعد عن النافذة فقد يكون الطنان محرجًا منه على غير العادة، لم ينبس الطنان بزقزقة واحدة، حاول الابتسام له ولو بشكل مصطنع، لم تفلح الفكرة، وضع قطعة من الخبز على طرف النافذة محاولًا فتح صفحةٍ جديدة، لم تفلح الطريقة، دقت الساعة الثامنة صباحًا أنّه موعد النشرة الصباحية، انفجار في...، مقتل مائة شخص في...، قطع رأس أحد الـ...، هدم منزل على رؤوس أصحابه في...، مقتل عشرة أطفال في...، عاصفة شمسية تقترب من الأرض في...، وصرح أن السلام خيار...، إقامة حي استيطاني في...، ذهبت عينه للصدفة نحو النافذة، طائر الطنان يشاهد نشرة الصباح أيضًا، كان أمله الوحيد لسماع صوت الفرح ولكنه يعذر صمته.

قمر الحصادين

تقدم لطلب يديها واتفقا على أن يكون الفرح حين يصعد قمر الحصادين إلى السماء، حمل كلّ ما يثبت أنّه أنهى تعليمه بامتياز، طرق أبواب الحديد والخشب لكل المؤسسات الرسمية والشعبية والدولية، في ليلة مظلمة تسلق الجدار العالي وهاتفها وهو في الجهة الأخرى أنّه سيغيب عامًا كاملًا ليجمع فيه تكاليف الزفاف، بكت ولكنها أكبرت فيه القفز على الحياة والموت من أجلها، ذهلت لرحيله واستغربت هذه الطريقة القاسية في سير الحياة. بعد عام هاتفها أن تستعد بعد يوم وليلة فقمر الحصادين على موعد، عام من الغيبة والشوق هو الحصيلة، صباحًا كفلاحة نشيطة بدأت بإعداد أنوثتها لطلوع القمر الموعود، غدًا وفي المساء ستتقاسم معه زفيرها وشهيقه، عيناها المدورتان كدوامة هذه الدنيا سارحتين بحثًا عن آخر صورة له في مخيلتها المشغولة بتحضيرات الزفاف، دموعها تسابق قلبها شوقًا إليه، رن هاتفها وكان وعدها أن يهاتفها حين يقفز عن الجدار مرّةً أخرى، صوت غريب..

: مرحبًا، خطيبة سامر؟!

: نعم، تفضل، خطيبته، أين سامر؟!

: العمر إلك قطعنا الجدار للجهة الأخرى، أطلقوا علينا النار واستشهد..

صرخت وصمتت وصرخت وخرجت تشكوه لقمر الحصادين.

رسالة إلى مهاجر..

حين وضعت الحرب أوزارها وخرج الناس أفواجًا ليروا أعمال التدمير والحرب التي خلّفها الاحتلال بحربه الأخيرة، بدا لدى أحمد أنّه لن يطيق صبرًا على البقاء هنا، الحصار، الحرب، الدمار، الفقر، الموت.. لا شيء هنا يحثه على البقاء، فالحل إذًا هو الرحيل، هذا ما يفعله الجميع حين تضيق بهم الدنيا بما رحبت، أو هكذا يظن..

وصل أحمد برحلةٍ بحريةٍ لا تخلو من الموت في كلّ موجةٍ غاضبةٍ تحتضن المركب البحري وتلقيه إلى أخواتها ليتركن من فيه بحالة خوفٍ وقلق، إلى شاطئ يوناني عبر رحلة معقّدة، سماسرة الهجرة والموت أعدوا حافلةً لنقل أحمد وشركائه في هجر الوطن، صعد إلى الحافلة التي بدا عليها تعب السنين وعتاقة الصناعة، جلس على كرسي تمزقت جلدة ظهره وخرجت أحشاؤه من القطن، ولكنها ما زالت أكثر راحة من مقعد المعدن الذي تعوّد عليه خلال الأيّام الثلاثة في عرض البحر، حمل هاتفه الذي ظهرت عليه عبارة "أدخل الشريحة" كتعبير عن ابتعاده أميالًا عن أقرب برج لشبكته الوطنية، أسند ظهره على الكرسي وبدأ بتقليب الصور التي جمعها لعائلته وبيته، أخذته سهوة مما هو فيه ونظر إلى النافذة التي ظهر كسر طولي وتشقق خفيف في زجاجها الكبير، بقية المهاجرين تصعد الحافلة بعضهم يبتسم وبعضهم حائر، وكثيرون يسعفهم أيّ حال غير حالهم في البحر، استسلم للنوم، سقط هاتفه من بين يديه، بما فيه من صور ولحظات موثقة.

كانت أمه العجوز التي أكسبتها سنوات العمر الطويل شقوقًا في الوجه وحكمة المجربين أوّل الزوار في حلمه في الغربة الجديدة، كانت تجلس في ساحة البيت وتحاول أن تكتب رسالة إليه بعد سني الغربة التي سيقضيها بعيدًا عنها وعن هذا المكان فكتبت:

"ولدي العزيز، غبت وقد فاح الشوق وآلمتني اللهفة لفراقٍ قد طال، ما زال الوداع الأخير يقلقني فقبلتك الأخيرة ترطب الجبين إلى اليوم، وحينها قلت أنك ذاهب إلى مكان يمشط إرهاق قلبك ويعلو بك إلى نجمات الأحلام، حينها قلت لك لقد أتعبنا الوطن وما أحزنّاه برحيلنا وأوجعنا وما جفيناه بالغربة، أجبتني أنك تتحرى الوطن، وها أنت تحريت فماذا وجدت؟

ولدي والشوق يقفز مع دقات القلب: اعذر أمك المتعبة على فراقك وتعال على فهمي القاصر للكلمات وأجبني: هل الوطن إلّا سماء وأرض؟ وزيتون وقمح، وجدائل أمك البيضاء والضوء المنتشر في العينين؟

عامان وأنا أنتظر إجابةً منك، أم أنك اليوم عشبة برية داستها قدم الزمان فأيبس عودها واشتعل الموت في جذعها الأخضر بعد صفرة اليباس، أما اشتقت أن تعود صهلة حصان يردد في الوطن صداه أو حبة مطر أو خصلة زيتون أو بيت زعتر أخضر في شق صخرة؟

بني، بعد غيابٍ أطول ستشتاق إلى رسائلي، وصور طفولتك ومنزلنا هذا، وكراريس المدرسة وعريشة العنب ورائحة الخبز، وصوت أبيك وظل مئذنة في حارتنا، حينها سيبدو الوطن قطرة دم تنتقل بين الوريد والوريد، وبين القلب والرئة وبين العينين؛ فيصبح قلبك وطنًا للوطن، وستبكي حينها حالمًا بنجمةٍ أخرى تحملك، وحاملات النعش إلى قبريهديك إياه الوطن ليكون وطنًا، وحينها ستفهم بكائي حين قررت الرحيل.

يا نسمة الريح التي تركت غيمتها الكبيرة، هلّا تعاهدني أن تظل حالمًا بأحلام الطفولة، بيت وأطفال ووطن في الوطن؟ هلّا يحملك الشوق يومًا إلى سريرك القديم وبيدر القمح وسطح العلية في ليلةٍ يرعاها قمر الحصادين، هلّا تعدني وقد لا أكتب بعدها أن تعود لتجمع قصاصات الخريطة وبقايا النشيد الوطني، عدني أن لا تملأ السماء سفرًا وغربة، عدني أن لا تتشبع اغترابًا، عدني أن لا يكون للوطن منك إلّا شاهد قبر وصورة.. عدني".

استيقظ بعد هذا الحلم على صوت سائق الحافلة يتحدث بلكنة لم يفهمها:

(لقد وصلنا..

اخرجوا من الحافلة أريد العودة إلى بيتي).

عبثية الحاجة لطيفة...

بدأت الحاجة لطيفة بتحريك ما تبقى من الزر المخصص لنقل مؤشر الراديو بين المحطات، كان الراديو الخشب القديم الذي ما زالت تقتنيه، رغم أنّ عمره الافتراضي قد احتفل بعامه العشرين على نهايته فإنّها أصرت أن تبقي شيئًا من رائحة المرحوم أبي مصطفى إلى جانب القمباز والمسبحة والساعة ذات السلسلة التي بقيت في جيب القمباز الداخلي، الراديو الخشب رغم ما عاصره من حروب وهزائم وانتصارات وخيبات أمل وفرح وأموات وأحياء فإنّه الصامد الوحيد إلى الآن؛ فالحاجة لطيفة خط عليها الزمن همومه بتجاعيد انتشرت في كلّ محياها الذي كان جميلًا في الصبا.

بعد أن بدأت خرخشة المحطات تقرقع أذن الحاجة لطيفة رست بها أمواج الراديو المنتشرة في الأرجاء على شاطئ نشرة إخبارية، صوت المذيعة لم يكن يروق لها؛ فهو صوت ناعم لا يبشر بنبرة حربية اعتادت أن تسمعها من مذيعات صوت العرب ومونتكارلو حين كانت الجيوش العربية تحاول مجتمعةً تحرير فلسطين قبل أن تفشل.

كان الفراش الذي تجلس عليه خفيفًا فأتعب عظامها؛ فأسندت ظهرها للحائط خلفها وربعت رجليها بجلسة اعتادتها في هذا الوقت من كلّ يوم، والحائط بما جمع من برودةٍ كفيل بترطيب قلبها الجاف بعد كلّ هذه السنوات من انتظار خبر مفرح، كانت الحاجة لطيفة تحاول سماع أيّ خبر عن غزة أو الوحدة أو العودة أو الأمم المتحدة أو الشهداء، أو الموقف العربي المشترك أو تصاريح الزيارة للأسرى أو السن المسموحة لزيارة القدس أو مؤن الوكالة، فكلها أخبار أدمنتها خلال هذه السنوات وكوّنت لها فهرسًا من المصطلحات كالصليب الأحمر ونزوح ونكبة وخيمة وكرت مؤن وعيادة الأونروا

وقصف وهدنة طويلة الأمد وقصيرة المدى، وانقسام ومصالحة وحكومة شرعية وحكومة مقالة وحكومة ظل وحكومة رام الله وحكومة حماس، وتجاذبات إقليمية وصواريخ بأنواعها عبثية وكرتونية ورادعة، كلّ هذه المفاهيم وجدت طريقها إلى خلاياها الدماغية دون أن تجد مكانًا في وعيها الوطني.

نشرة الأخبار كانت باهتةً خفيفة اللون؛ فالحرب على غزة وضعت أوزارها فعاد الجند إلى قواعدهم وبدأ السياسيون بجمع ملفاتهم، هناك يسوّقون النصر ويخشون انتخابات مبكرة كان شرها مستطيرًا، وهنا عاد النصف إلى غزة والنصف إلى رام الله، ولا تخفي الحاجة لطيفة أنّها تابعت نشرات الأخبار بل حفظت موقع مؤشر تيونر الراديو تزامنًا مع عقارب ساعة أبي مصطفى في علاقة معقّدة بعد اشتعال فتيل الحرب، كانت تسميها "حرب الغايرين" على غزة، وكلما أعلن المذيع أو المذيعة بالطبع قصف منزل أو سيارة أو أرض خالية تلحق خبر الإذاعة بعبارة "الله يقصفهم"، و أفرحها جدًّا نهاية تلك الحرب، حتّى إنّها تابعت خطاب نتنياهو وقالت تعقيبًا عليه "وجهه أسود أسود" كتعبير عن يقينها بهزيمته في تلك الحرب.

عام دراسي.. غائب..

بدأ النشيد الوطني يعلو كما كان كلّ صباح في مثل هذا اليوم من السنوات الأخيرة، مدير المدرسة الذي اصطف أمام تلاميذه الصغار وخلفه ثلاثة صفوف دراسية وغرفة الإدارة وهو ما تبقى من مدرسته، بدأ ترحيبه بالطلبة مُشيرًا إلى ضرورة التأقلم مع و اقع المدرسة الجديد بعد أن استهدفها صاورخ إسر ائيلي هدم منها أكثر مما أبقى، مطمئنًا الطلبة أن التعليم بخير، و أننا بخير ما دمنا نقاوم بالعلم.

أحمد وهو مرفع إلى الصف الخامس الأساسي بدا قلقًا بعض الشيء؛ فأمه هذا الصباح قد أعدت له كلمة لإلقائها أمام الطلبة وهي نص وصية لوالده الشهيد الذي ارتقى في مهمة قتالية على حدود غزة، نظر مدير المدرسة تجاهه وقال بما تيسر من جهورية صوته، أحمد أبو وطن يلقي علينا كلمة الصباح، توجس أحمد في نفسه خيفة فهي المرّة الأولى التي يرتقي فيها منبرًا وإن كان منبره الأول كتلة من حطام غرفة الصف السادس، تطايرت بعد القصف وتهاوت في الساحة على مسافة أمتار، توجه نحو المنصة وكان قد راجع ورقة الوصية عشر مرات مع أمه وجدته وهما من تبقى له بعد استشهاد والده، وبدأ الخطابة "إن لفلسطين علينا حق الحياة فموتنا في سبيلها حياة"..

مدير من وكالة الغوث يبدو بريطاني الجنسية وصل غزة قبل الحرب بيومين، كان يتنحنح لإلقاء كلمةٍ ما حول تعزيز السلام على الأرض، و ائل مدرس اللغة الإنجليزية بدأ بالترجمة "السلام لغة عالمية نرسمها بالتعاون ونحييها بال.."، بسمة مضلعة رسمت على شفاه الأطفال الصغار مع عقدة حاجب، فهمها فغير الكلمات "ولا بد من نهاية لهذه الحرب.." لربّما نسي أنّه

يقف على كتلةٍ من حطام مدرسة ابتدائية قصفتها طائرة حربية كتب على قذيفتها بخط طفولي "الموت لأطفال غزة" كتبه تلاميذ مستوطنة نتساريم المجاورة.

في داخل صفٍّ مما تبقى من صفوف المدرسة الثلاثة تكدّس طلبة الصف الخامس الابتدائي من شعبتي (أ) و(ب) في مكان واحد، دخل عزمي مدرس اللغة العربية كأوّل حصة دراسية وبدأ بعمل جرد بشري لمن تبقى من الطلبة بعد الحرب..

: أحمد أبو... "حاضر".

: ماجد أبو.. "حاضر".

: رائد محمد أبو.. "حاضر".

غمرته لحظة تفاؤل..

: مهند أبو.. "استشهد مع عيلته يا أستاذ". رد ماجد.

: إيهاب بلال أبو.. "استشهد مع ولاد عمه وهم بيلعبوا جنب البحر". رد رائد.

: معتصم علاء الدين.. "حاضر".

: معتصم العواد.. "في المستشفى من شهر قصفوا دارهم". رد ماجد مرّةً أخرى.

: عبد السلام أبو.. "أستاذ، عبد السلام تركوا البيت وما حدا بعرف وين راحوا". رد معتصم.

: ياسر بسام أبو.. "استشهد يا أستاذ يوم العيد". رد ماجد.

: وائل أبو...

صوت قذيفة من بارجة بحرية قرب شواطئ غزة.. غطت على بقية المشهد.

القدس... قاموس الروح..

يعجبني فيها كلّ شيء، لون القبة الذهبي، طول المآذن، اتساع السماء فوقها، وألوانها المسكونة بروح التاريخ، لا تزال صامدةً تقبض على جمرها، تحافظ على عروبتها، تعجبني فيها تفاصيل الطريق، أسوارها العتيقة، حضنها المتسع لنا كلما جئناها مصلين، هنا رائحة الملائكة، هناك رائحة نبي، وفي المحراب رائحة نبي آخر، وصوت براق يصعد للسماء، هنا رسمت خطوط التاريخ والجغرافيا، هنا قاموس يؤرخ لكل العصور، هنا وهنا فقط التقت السماء بالأرض فصعد الأنبياء أو هبطت الملائكة أو رفع الرسل أو عرج بهم في رحلة كونية، لم يكن في نيتها أن تبقيهم في أحضانها طويلًا، كلّ الغزاة حاولوا أن يغيروا شكل الحارات ولون السماء ورائحة الخبز المقدسي وجميعهم فشلوا، فهنا صوت ممزوج بالتاريخ، هنا بدأت أحلام الأنبياء، كلّ رجال التاريخ كانوا يفهمون المعادلة، القدس بوابة الدنيا، القدس بوابة العالم، كلّ الأحلام تجتمع في القدس، بصراحة يعجبني فيها كلّ شيء، كلّ شيء، فهي الغلاف الوطني الوحيد الذي ما زلنا نجتمع حوله، وما زال عصيًّا على فرقتنا حين نعقد العزم على الانقسام..

بالمناسبة أنا لم أزرها منذ زمن، ولا أعرف إلّا رائحتها التي ما زالت تعبق في أنفي إلى اليوم، تمنعني عن رؤيتها أسوار وأسوار وأسوار وأوهام، لكنني لا أستطيع أن أوقف حلمي يومًا بالصلاة في ساحاتها، سأصلي صلاة الخاشع الطالب للأجر، وأصلي صلاة الشاكر حين يعود إليه مفقوده الثمين، عشق هذه الجميلة ليس روحانية عابرة أو نزوة تملأ القلب ثم تزول، هذه الثمينة فيها مفردات عجيبة جعلت منها قاموس الروح.

سار من أجلها الفاتحون على أقدامهم ليقطعوا رحلات أسطورية فهي أم الأماني، من أجلها جاءت الجيوش غازية من قارات أخرى، لا يتكلمون لغتها، لا يعرفونها كما نعرفها، وعشقوها وجاؤوا للموت في سبيلها، فكيف و أنا أشم نسماتها في أواخر نيسان، وكيف و أنا أرى أضواءها إذا ما ركبت ظهر جبل يشرف على قبتها، وكيف لا تكون قاموس الروح إذا ما انعكس خيالها على قمر أنار سماءنا وسماءها فتلوّنت السماء بلون قبتها الصفراء، أفلا تستحق أن أسميها قاموس الروح؟! ويسرقني الحنين كلّ مساء إليها..

حياة.. وسط الموت..

تبدو باسمةً ضاحكة، كأنها تقول أنّها الحياة رغم كلّ هذا الموت، تر اقب الجوار باحثةً عن طفلةٍ كانت تحملها بين الأحضان، كان اسمها مريم، مريم تحت الأنقاض تحت هذا الركام، ذلك الجسد الغض أصبح جزءًا من معادلة التاريخ الطويلة، أصبح سطرًا في كتاب الموت المستمر منذ عقود، مريم عمرها الصغير وطفولتها المبكرة لا تسمح لها بحمل صاروخ أو قذيفة، مريم كانت تحمل هذه الدمية الثكلى بفقدانها، تحت كلّ هذا الركام جسد يبلله الدم ويخالطه غبار البيت يختلط بأشلاء الأم التي احتضنت مريم حين اقترب الموت المحمول على جسد الصاروخ، يختلط الدم وأشلاء الأم والركام ور ائحة البارود الأمريكي وحديد صلب من صنع القتلة، جسد مريم الغض تحت كلّ هذا الركام يختلط بالتاريخ الحقيقي لهؤلاء، هم قتلة فقتلوا مريم وتركوا دميتها ثكلى الفقدان، أيّ حوار يسكن ذهن الدمية، هل تنجو الدمية وتموت الطفلة؟ ما ذنبك مريم؟ ولمَ يجتمع جيش يصنف كالعاشر في قوة كلّ جيوش العالم ليقتل مريم؟

تلك الدمية رغم قساوة هذا الموت القادم من طائرةٍ حربيةٍ ابنة قائدها الصغرى تملك أخت الدمية، تتساءل تلك الدمية كيف لمريم برغم جمال العينين ونعومة هذا الشعر والجسد الغض والضحكات الممزوجة ببراءتها المفترضة أن تسقط أطنان من ردم وقنابل لتكون بها مريم أشلاء؟ و أنا أحيا وتعيش طفولة بنت أخرى في مستوطنة في الضفة تحميها كلّ الأعراف وكل حكومات العالم! يحميها جيش من هولاكات العصر وجيش من مرتزقة ومجلس أمن وقنابل أمريكية! تسند تلك الدمية كما وضعتها مريم آخر مرّة تنظر نحو الشمس، تنظر غطاءً جويًا عربيًا، تنظر منشورات النصر تلقيها

طائرة أخرى، تنتظر وصول جيوش، عربات، دبابات، ومدافع كي تحمي مريم حين الحرب، تلك الدمية تتساءل عن حالة موت لا فطرية، كيف لموت يسرق مريم منا ويجعلها جزءًا من بيت أسقطه صاروخ محمول بالموت أن لا تحيي فينا حالة خوف وفزع، أن لا نجمع أشلاء طفولتنا يوميًّا كحالة مريم؟ مريم ماتت.. دميتها تبقى كي نتذكر أنّ الموت بغزة حالة حياة.

بريطانيا العظمى..

اعتاد الاحتلال البريطاني في فلسطين على عقاب سكان المدن والقرى لدعمهم الثوار حينها بإتلاف كلّ مؤونتهم التي يحفظونها في بيوتهم من خير ما تجود به أراضيهم كالزيت والزيتون والقمح ورُب الخروب والسمن البلدي ومربى المشمش وغيرها، وفي إحدى القرى الفلسطينية أعلن حظر التجوال وشرع الجنود بإتلاف مؤونة السنة بإفراغ بعضها فوق بعضٍ حتّى لا يتمكّن المنكوبون من الاستفادة منها ثانيةً، الزيت فوق طحين القمح وفوقه المربى والزيتون المخلل، وبالنهاية يفرغون فوقه الجاز إن وجد "ببور" البيت المخصص للطبخ، فكان الفقراء هم الأقل تضررًا فبيوتهم خاوية على عروشها، أمّا المختار وأعوانه فلا شك أن خزائنهم عامرة بما لذ وطاب من خيرات الموسم، هم المتضرر الأكبر من هذا الإجراء التعسفي، وهنا يتذكر الفلاحون أن أحد البسطاء الفقراء حين سمع من الجيران أن جنود بريطانيا العظمى حينها يتلفون مخزونهم الاستراتيجي من "مونة" السنة، خفق قلبه وتباعد حاجباه وجحظت عيناه ووضع طرف "قمبازه" بين أسنانه متمتمًا بلعنة بريطانيا وحلفائها في المنطقة، معلنًا اتخاذ موقف نضالي جديد لم يعهد عنه من قبل، مسرعًا إلى الخابية حيث توضع "المونة" فكل ما يملكه موجود هنا، جلس القرفصاء ودقّق النظر وحينها ابتسم ابتسامةً مائلةً ملوّنة؛ فهنا لا يوجد إلّا وعاء من الفخار كان قد ملأته زوجته الطيبة بما جادت به شجرة المشمش من حبات فصنعت منها بعض المربى الحلوة للأيام المرّة التي قد يخلو فيها البيت من أيّ طعام إلّا الخبز وبعض المربى، تناول الوعاء وفتح غطاءه المحكم الملفوف بقطعة من الخيش ورفعه إلى فمه ولم يتركه إلّا فارغًا.

وليطمئن قلبه استعمل السبابة ليجمع ما تبقى في قعر الوعاء مستمتعًا بلحسها.. وحين انتهى عاد إلى فرشته التي كان قد وضعها في ساحة البيت وتمدّد فوقها متّكئًا على وسادته ووضع رجلًا على أخرى ونظر إلى زوجته وقال: "ما ظل اشي نخاف عليه، تسقط بريطانيا العظمى".

آخر صورة..

رغم أنّه لا يستخدم الكاميرا في هاتفه المحمول فإنّه هذه المرّة حاول أن يجعلها سابقة في حياته.. حمل الهاتف ويده ترتجف وجبينه قاطب وفي عينيه دمعة تسابق الزمن.. لم يدر في خلده يومًا أن يعيش هذا الموقف.. هو طبيب يعيش حياة الأطباء.. يتنقل بين مرضاه زارعًا الأمل والحياة.. تزيّن وجهه بسمة شافية تتفوّق على الأدوية المستوردة في فعاليتها.. تنقل بين المصابين هذا المساء.. يطبب هنا ويطمئن هناك، ويربت على كتف طفل بُترت قدماه محاولًا زراعة بعض التفاؤل أنّ القادم جميل ربّما كما الماضي.. وصل إلى غرفة يتزاحم نحوها الأطباء.. حالة حرجة.. أطباء الطوارئ.. ممرضو المناوبة.. مسؤول بنك الدم.. عمال النظافة.. أطباء العمليات.. كلهم يعلنون حالة الطوارئ في هذه الغرفة.. آخر نفس.. الإنعاش بالكهرباء.. بالأدرنالين.. محاولات حثيثة... صوت جهاز قياس نبض القلب يتغيّر.. الخط يستقيم.. دخل إلى غرفة.. الكل هنا يردد "شهيد آخر".. وقف بجانب السرير.. أصابته الحيرة والدهشة والذهول والغضب والحزن والخوف والرغبة في البكاء في لحظةٍ واحدة.. لا يعرف طريقة للتعبير عن الحالة.. حاول أن يبكي.. أن يغضب.. أن يضمه إلى صدره.. كلّ محاولاته فاشلة.. حمل هاتفه الجوال.. التقط صورة للشهيد.. فهو ليس سوى ولده البكر.. لم يلتقط له صور من قبل.. بل كانت.. صورة أخيرة.

بنك الذكريات..

صوت الصاروخ التحذيري قد دوى في أرجاء البيت... صلاح وصغاره الأربعة وزوجته هنادي كانوا يتناولون طعام الإفطار.. لم يكن صلاح يتوقع أن هذا الصاروخ التحذيري يتعلق بالبيت الذي سكنه منذ زواجه قبل خمس سنوات.. كان يتحدث مع هنادي عن يومه المتعب وعن جارهم أبي ماجد الذي أطلقوا على بيته قذيفة تحذير لإخلاء بيته تمهيدًا لقصفه وتدميره، وقبل أن يتحرك منه أطلقت قذيفة مدمرة سوته بالأرض وصعد من فيه شهداء إلى السماء.. قال لها "بدهم يفهمونا إنّه عندهم رحمة وإنسانية وبقصفوش قبل ما يحذروا والصحيح يا هنادي إنّهم بعملوا هيك عشان يعيشوا صاحب البيت دقيقة عذاب وخوف على عيلته وبيته بخافوش الله يا هنادي".

كان الجميع ينتظر الأذان للإفطار خاصةً أكبر صغاره بيسان التي أصرت على عدم الأكل إلّا مع والديها، أمّا رغد وباسل وأحمد فهم صغار لم يدركوا حكمة الصيام بعد.. أصوات الجيران نبّهت "صلاح" إلى أنّه المستهدف.. نظر إلى هنادي وقال "يلا بسرعة خدي الولاد واطلعوا".

سألته هنادي إن كان سيخرج معهم فالوقت لن يسعفه..

قال أنّه سيجمع ما استطاع في كيس ويلحق بهم.

نظرت إليه وكأنها تتساءل: ماذا أهم من حياتك وأيّ قيمة له إن خسرناك؟!

أجابها وكأنه يسمع صوت عينيها: عقد الزواج، شهادات الميلاد.. جوازات السفر.. شهادة الجامعة.. الهوية الوطنية.. ورقة الطابو في غزة.. كوشان الأرض في صفد.. مفتاح بيتنا هناك.. صورة زواجنا... صورة طفلنا الأول.. صورة أمي و أبي..

أجابته: لا وقت لديك أرجوك تعال معنا..

لم يمض سوى نصف دقيقة من الصاروخ التحذيري.. تحرك هو نحو بنك الذكريات.. تحركت هي نحو حياة لا ماضي فيها.. صاروخ من طائرة حربية جمع أشلاءهم على مائدة الإفطار.. كانوا من بنك الأهداف!

حوار فوق الأنقاض..

الطفل: أبي، أين كان بيتنا؟

الأب: كان مكانه هنا حيث نجلس.

الطفل: أبي، هذا ركام بيتنا؟

الأب: نعم، هنا كانت غرفة أختك الصغيرة.

الطفل: أبي، أين شقيقتي مريم وأمي؟

الأب بصوتٍ يملؤه القهر: في ذمة الله.

الطفل: أبي، ماذا تعني في ذمة الله أرجوك أريد أمي؟

الأب: لقد فارقتا الحياة في الغارة الأخيرة، أمك وأختك سارة قتلتهما "إسرائيل".

الطفل باكيًا: ولماذا تقتلهما؟ لم تفعلا شيئًا يا أبي، لقد كانتا نائمتين أنا متأكد لم تفعلا شيئًا.

الأب: يا طفلي الموت هنا ليس كأيّ موت، هنا لا يحتاج الموت المتفجر تبريرًا لسلبك الحياة.

الطفل: أبي، وماذا كان رد العالم ومجلس الأمن بعد قتل سارة؟

الأب: لم يفعل شيئًا أيضًا فسكوتهم أيضًا لا يحتاج إلى تبرير.

الطفل: ألم تقل أن هذه غرفة سارة؟

الأب: نعم هنا حيث نجلس.

الطفل باحثًا بين الأنقاض: أين هي؟ كانت هنا!

الأب ناظرًا إليه: عن ماذا تبحث؟

الطفل: ها هي، وجدتها.

الأب: ماذا وجدت أجبني؟

الطفل: هذا هو سبب قتل سارة.

الأب ينظر إلى طفله الذي عاد بورقة تهالكت بفعل الصاروخ المحمل بالفسفور.

الطفل: افتحها يا أبي و انظر لماذا قتلت أمي وسارة.

الأب يفتح الورقة، مرسومة بخط اليد ملونة بالألوان الأربعة، خارطة فلسطين التاريخية، الأب وتبدو ملامح السؤال على وجهه: أليست هذه الصورة التي رسمتها لكم قبل شهرين؟

الطفل: نعم يا أبي أنت قلت لنا أن أرضنا كانت هكذا وأنهم سرقوها وغيروا ملامحها وأن علينا أن نعيدها حينما نكبر.

الأب وقد تهلل بالأمل: نعم هذا هو السبب.

الطفل: أبي، لا تقلق سأحتفظ بها إلى الأبد؛ فمن أجلها هدموا بيتنا وقتلوا أمي وسارة، فقيمتها الآن أصبحت أكبر.

حكاية الأمل الغائب..

شربت بعض الماء وعادت إلى سجادة الصلاة كي تنتظر أذان الفجر.. فهي منذ ثلاثة أيّام تعيش حالة من القرب من الله.. هو من ينسيها كدر الهم وحالة الحزن الهلعة التي تحياها.. كانت تنتظر هذا اليوم، منذ عامٍ تقريبًا قال لها أنّه يرغب أن يكون طبيبًا ليساعد من أعياهم تعب الحال؛ فالجو والأرض والدنيا كلها مقفلة في وجوه الناس هناك.. قال لها ذات ليلة أنّه سيقيم حفلًا للفقراء إن حصل على مبتغاه.. تسلّلت دمعة رطبة إلى الخد المجعد.. رَفع أذان الفجر فأقامت الصلاة وقامت رغم همها القاتل.. فالقلب متوقف منذ غابوا.. هي من بقي.. وأيّ بقاءٍ للشجرة إن سقطت ثمارها والأوراق.. أيّ أمل.. وأيّ حياة.. رفعت يديها بتكبيرة الإحرام وعادت إلى رحاب الله فهو كفيل بسكينة القلب والجوارح.. كان دائمًا يعود من صلاة الفجر

يُقبِّل كفيها ويطلب منها أن تدعو له.. كان يعدها أن يكون يومًا ما تريد.. كانت شفتاها تتمتمان دائمًا برضى القلب عليه "الله يرضى عليك يما يا محمد" كان هذا نشيدها الوطني وشِعرها المعلّق.. في أحد الأيّام وبعد أن عاد من امتحانه قلقًا مضطربًا كانت تصلي الظهر حينها.. وضع رأسه على صدرها فربتت عليه وأعطته طمأنينة قلبها كاملة.. كان هو قلبها المتحرك.. كان محمد أملها الأخير.. كان عيناها..

أكملت صلاتها دون أن تغادر تلك السجادة التي أحبتها فهنا رائحة محمد.. هنا صلى فاختلط العمل برائحة الجسد.. هي ما تبقى لها من رائحته الآن... كانت الشمس قد بدأت بالصعود... في مثل هذا اليوم كان محمد سيصحو باكرًا.. في مثله سيأتي يُقبِّل كفيها.. وينهل من رضاها.. في مثله سيصدقها الوعد.. كان سيأتيها بحصاد رضاها الدائم عنه.. قالوا لها أن تأتي اليوم إلى حيث يوزعون الآمال، فأمل محمد ما زال هناك.. فقررت الذهاب.. لم تمنعها دعوات الجارات والرجاء أن لا تضع العالم في موقفٍ كهذا.. أن لا تضع الإنسانية في أزمة.. أن لا تبحث عن أملٍ مفقودٍ بين أوراقٍ لا قيمة لها الآن.. إحدى الجارات قالت "لا توجعي قلوبنا" لكنها استمرت في طريقها.. كأنها تراه هناك.. يلبس جديده.. وينتظر سماع النتيجة.. كأنها كانت على موعد معه.. "لا توجعي قلوبنا" فكيف بقلبها وضراوة وجعه.. كيف وقد غابوا جميعًا وغاب محمد..

وصلت إلى بوابة المدرسة الرئيسية.. زملاؤه جميعًا هناك.. مروان... سامر.. بهاء.. رائد.. جميعهم هنا.. ومحمد ليس بينهم.. أيها الغائب مهلًا أراك قد أبكرت الرحيل.. أي المترجل ها هم جميعًا يضحكون.. يفرحون ويأملون.. فأين أنت يا مهجتي.. أيها المسافر في رحلتك الأبدية.. هنا مقعدك لم يزل.. هنا

مكان خطاك.. هنا صحبك.. وهذا يومك أيها المتشبث في الروح فأين أنت؟ أين أنت!

حملوا كشوف العلامات وبدأ أحدهم بذكر الأسماء.. رائد.. سامر... "محمد البطش ٨٩".. أفلتت منها صرخة، أغرقتها ما تبقى من دموع العين.. حملت الأوراق واحتضنتها.. وبكت.. وبكت.. وبكوا.. و أبكتنا جميعًا.

حلمان وأمل ورصاصة باردة..

نظرت إليه عبر النافذة المطلة على بيتهم وكان يجلس مع والدته التي غاب عنها أسبوعًا كاملًا في الجامعة فهو يتوقع التخرج بعد شهر من الآن..

دفء الليلة لم يحل دون نسمة تشرينية تشعره أنّ هناك من يراقبه من مكانٍ ما.. القمر المسيطر على تلك الظلمة الصافية قرر أن يكون شاهدًا على وعدين لها بالزواج بعد أن يجد وظيفةً مناسبةً تطعمهما من جوعٍ وتؤمنهما بعيشٍ معقول..

رفع عينه مُتفحِّصًا إحساسه بوجدها.. كانت تراقبه من بعيد كما كلّ مرّة..

كانت تحبه كما أحب الشعراء قبل فجورهم.. كانت تراه فارسها المترجل عن ظهر جواد القدماء...

كلما مر من الشارع المرصوف بأمنيتها رقبته عبر النافذة.. كأنها تحمل إليه شوقًا حتّى وهو القريب.. تعرف رائحة المكان إن حضر..

تستشعر بشكل عفوي حرارة المكان، تتذبذب بين شوقها إليه وخوفها من مستقبل قد لا يجتمعان فيه.. حين زارتهم في آخر مرّة لا يعلم كيف تنبأت بوجوده.. كان لديها أجهزة استشعار مخصصة لاكتشاف وجوده في محيط الكرة الأرضية.. كان الرجال يتوارون إن هو حضر..

كأنه النسخة البشرية المستخلصة من أجلها... ربّما كان عشقها له يغطي على كلّ الأمور الأخرى.. لا مكان هنا سوى لنظرةٍ في عينيه..

ألقت عليه السلام بصوت مرتبك خجول زهرت فيه أكوام من الشوق والعشق وربما أكثر..

رد التحية بأحسن منها دون النظر في عينيها.. هو يريدها زوجة ولا يرغبها عشيقة.. دائمًا كان يقول أنّها سره الذي يحفظه وليست عاره الذي يخجل منه.. هكذا عبّر لها عن كتمان ذلك العشق المتربع في أكناف القلب.. خبيئته الثمينة.. هكذا كانت.. هكذا أرادها..

نظر مرغمًا إلى تلك النافذة كأنه يلقي التحية من بعيد..

ما زلت تسكنين التاجين..

ما زلت ملكة القلوب البيضاء..

أيّ عينين تيْنك اللتين تسطعان بقوةٍ تفوق قمرين... كان يرى عينيها بشكل أوضح هذه المرّة.. ربّما أنّها المرّة الأخيرة التي يراها فيها.. كانت نساء الحي يتحدثن كثيرًا عن عينيها.. كان أحيانًا ينصت.. وأخرى يفرح.. وفي ثالثة يسر النجوى أن تكون بيته الأخير..

في الصباح حمل حقيبته السوداء على كتفه، حمل فيها كتبًا ودفتر ملاحظات كتب عليه بخط واضح.. أحبها.. تحرك مع أمنيات أمه بأن تراه يحمل شهادة وأملًا.. وأن يعود إليها محمولًا على أكتاف الزملاء فرحين به.. تقدم نحو حاجز عسكري قبل أن يصل الجامعة.. جندي من أواسط روسيا.. سلاحه بارد.. رصاصه بارد.. ولا أماني لديه.. أطلق عليه الموت ورصاصة.. سقطت دفاتره وحلمان وأمل...

حوار مع الوطن؟!

أيها المتعب مثلي..
أيها البعيد مثلي..
أيها المتدثر بالبرد وتكفيك الأحزان..
لتزرع بعض الدفء على جنبات المقهورين بقهر ترابك..
أيها الضائع بين سياط الغربة و أنياب الموهوم بنصر كوني مكذوب..
أيها المبتلى دون نهاية..
أيّ أفق تراه..
أيّ رؤية تلك التي تأملها من بين المنقسمين على بوابة بنك أو تحت سياط الجند الموهومين...
مسكين أنت..
يقتسمون الفتنة حولك..
فنقتسم الموت وآهات حياة فرضتها رؤية موهوم أو مشلول الفكرة والتنظيم..
كم أنت غريب يا حامل هذا العلم المرفوع..
كلٌّ يحمل علمه..
كلٌّ يرفع راية..
و أنت ستبقى تحملك الأعناق كما كلّ الشهداء..
حين رحلنا عنك قلت: تعود...
لمّا أفهم قولك يا أجمل جرح في خصر التاريخ...
كنت كيعقوب قال: حطة فقالوا حنطة..

قلت تعود و أنا لا أفهم في لغتي أكثر من زرع الزارع ومات ولم يأكل من ثمره.. قلت تعود..

لم أفهم قولك يا وطني..

فالصوت تشوّهه أصوات الفقر وأصوات الموت وأصوات القهر المفروض بظل القانون..

قلت تعود..

سمعت: تعوّد..

كأنك تقرأ لي ألحان الموت بعيدًا عن ظل الزيتون..

قلت تعود.. فهمت تعوّد..

أتعبني فهمك يا مسكين..

أثقلت همومي ما بين الغربة والشوق..

أسألك الله تراب الأرض أجبني..

أقلت تعود أم أنك قد قلت: تعوّد..

أسألك الله أجبني يا خير الأوطان..

حمَلة هموم عليا..

كعادته كلّ يومٍ أفاق صباحًا، توجه نحو المطعم المجاور، اشترى بعض الفلافل والحمص، كانت الجريدة قد وصلت ونسخته اليومية محجوزة، تناولها وأجاب قبل رحيله عن سؤالٍ لبائع الفلافل الذي اعتاد على سؤاله: بعدك ما لقيت شغل؟

: لسا ما في وظيفة.

: الله يكون بالعون.

عاد إلى البيت، كانت أمه قد أعدت الشاي ووضعت زيتًا وزعترًا وبعض الخبز ليتناولا الفطور معًا، كان سؤالها اليومي..

: جبت الجريدة يما؟

: آه يما جبتها.

: الله يفتحها بوجهك وتلاقي وظيفة تسترعليك وعلينا.

سؤال أمه هذا كان كحبة المضاد الحيوي ثلاث مرات قبل الأكل يوميًّا، فإن خرج من البيت وعاد نظرت إليه وسألته، وإن سمعت خبرًا عن المصالحة نظرت إليه وسألته، وإن سمعت خبرًا عن زيارة وزير أجنبي نظرت إليه وسألته، وحتى حين تعثرت المفاوضات نظرت إليه وسألته: لقيت وظيفة يما؟

كان محرجًا دائمًا حين يجيبها أنّه لم يجد بعد وكانت تطلق زخة من الدعوات بالتوفيق والسداد مع بريق حزين يملأ عينيها كلما سمعت إجابات النفي منه، كان فطوره مغمسًا بهاجس البحث عن المستقبل كما عشائه ونومه.

فتح الجريدة على الصفحة الأولى.. لقاء وزاري عربي لدعم الاقتصاد الفلسطيني المتهالك، وخبر عن الوصول إلى توافق على حكومة المصالحة والاتفاق على وزراء من الحكومة السابقة، قرأ الخبرين وتحرك نحو الصفحة الثانية.. خبر بالخط الأسود العريض عن إنجازات وزارة العمل الفلسطينية بإخراج العمالة إلى بلد آخر بظروف تبتعد عن الموت بخطوات قليلة، خبر آخر عن تزويد فلسطين بالوقود الفنزويلي، لا يعنيه الأمر فهو لا يمتلك سيارةً أو حتّى بيتًا، كلّ ما يملكه الآن هو حلم وشهادة جامعية في إدارة المؤسسات العامة وبتقدير ممتاز، أنهى متطلباتها بتكلفةٍ وصلت بأمه إلى بيع حصتها من أرضٍ ورثتها عن أبيها المتوفى وخاتم عتيق من الذهب عله يساهم في إتمام المتطلبات.

قلب الجريدة لصفحتها الثالثة، خبر عن شاغرين وظيفين في تخصص إدارة الأعمال.. جذبه الإعلان بشدة، قرأ التفاصيل، أن يكون خريجًا وصاحب خبرةٍ لا تقل عن سبع سنوات.. أصر على إكمال الإعلان للنهاية.. المؤسسة ليست ملزمة بأفضل المتقدمين وسيتم الاتصال بمن يقع عليهم الاختيار.

كالعادة لم يجد ضالته بالصفحات الأولى والثانية و.. توجه إلى الصفحة الأخيرة وحرّك إصبعه باحثًا عن حظه لهذا اليوم.. برج الميزان.. "لا تسرف في أحلامك ولا تناضل من أجل تحقيقها فلن تحقق سوى مزيد من خيبات الأمل، حاول أن تكون واقعيًّا وتذكّر دائمًا أنك من حملة الهموم العليا".. وضع الجريدة على الطاولة وأكمل الفطور أملًا في توقعات أجمل لأبراج الغد.

ماء وملح ورسالة الوعود..

منذ الصباح وهو يُحضِّر نفسه للخروج، خاصةً أنّه أخبر خطيبته -وعبر رسالة حملها الصليب طالبًا منها أن تنتظره (وهي تفعل منذ سنوات أربع)- أن اليوم التالي لخروجه هو الفرحة الكبرى وأنّهما سيتزوجان مباشرةً ويعيشان كما تعيش ملايين الأزواج على هذا الكوكب... وبعث في نفس البرقية رسالة إلى والده كي يكمل له إجراءات التسجيل في الفصل الأخير من دراسته الجامعية؛ فهو منقطع عنها لأكثر من ثلاث سنوات متتالية... وفي البرقية ذاتها بعث برسالة خاصة إلى شقيقه الأصغر بأنه سيكون موجودًا في حفل تخرجه من الثانوية العامة... وأرسل تطمينات إلى شقيقته بأنه سيحضر ولادة طفلها الثالث هذه المرّة وأن شيئًا لن يكون عائقًا أمامه، وبعث في برقية الصليب الأحمر الأخيرة رسالة إلى والده بأنه سيعينه في موسم الزيتون القادم بعد أن كان قد وعده بذلك لثلاث مراتٍ في السابق، وجدّد في رسالته الأخيرة حزنه لحرمانه من وداع والدته المتوفاة منذ عام ونصف مؤكدًا نيته زيارة قبرها وقراءة الفاتحة لمجرد خروجه من هنا... ووعد جاره وفي الرسالة نفسها التي نقلتها موظفة الصليب الأحمر في زيارتها الأخيرة له بمساعدته في بناء السور المتهالك، كما تعهّد بأن يساهم في يوم تطوعي لزراعة الأشجار في جبال القرية.

ختم الرسالة بعبارته المعتادة "كما في العام الماضي أرجو أن أتمكّن من تحقيق هذه الوعود، أرجو أن لا تقوم سلطات الاحتلال بتمديد توقيفي إداريًّا ودون تهمة واضحة وضمن ملف سري مرّةً أخرى".

أنهى ترتيباته الصباحية استعدادًا للخروج في مشهدٍ تكرر ثماني مرّاتٍ خلال السنوات الأربع الأخيرة، جمع مذكراته وأشعاره وآماله وكتب على الأوراق نص الدعوة التي ستكتب في بطاقة دعوة عرسه، وكتب خطة لإنهاء ما تبقى من متطلباته الجامعية، وبدأ بتذكر بعض الأسماء التي ستطلق على طفلة شقيقته التي قررت أن تترك له حرية خيار التسمية، وجهّز بعض الكلمات ليقولها لشقيقه الذي ينتظره فرحًا ليشاطره فرحة النجاح وبعض الكلمات لينعي به غاليته التي حرم من وداعها، وقف أمام الشبك الحديد الذي يفصل الزنزانة عن الممرات الضيقة، بدأ يستمع إلى أسماء المفرج عنهم، وأخيرًا اسمه... فرحة بحجم لحظات النداء سرعان ما تنتهي... "تمديد ستة شهور إداري"... لم تسقط عزيمته كما أرادوا له، بدأ بكتابة الرسالة للمرة الخامسة على التوالي وقرر أن يكتفي بالماء والملح حتّى ينال تحقيق بنودها..

عودة لاجئ

على غير عادته اليومية استيقظ أبو صالح قبل صلاة الفجر بساعتين؛ فهو معتاد أن يصحو على صوت ديك الجيران قبل الفجر بساعةٍ تقريبًا، ولكن اليوم حدث مميز يريد أن يبدأ يومه من أوله لكي يقيم طقوسه، فتح عينيه، نظر إلى السقف واستعاد ذاكرته المفقودة خلال الدقيقة الأولى من صحوه، رفع الغطاء عنه واستقام جالسًا على فراشه المتهالك الذي أهلكه بستة وستين عامًا من النوم عليه، مد يده تحت وسادته المتعبة وبدأ بالبحث عنها، ارتطمت يده بالسلسلة، جرها نحوه وحمل ساعته القديمة بكفه المرتجفة وضغط على طرفها مقربًا عينيه منها ليتأكد من الوقت، إنّها الثالثة والربع فجرًا، أعاد الساعة ذات السلسلة إلى مكانها.

عاد ليبحث بيده عن شيءٍ آخر، ارتطمت يده به، سحبه من تحت الوسادة، أحضر قطعة قماش كانت بجانب فراشه ومسح بها المفتاح الضخم الذي حملته والدته ووضعته بين حنايا صدرها فهو المكان الآمن، ذلك الوقت حين سقطت الأرض وبقيت الصدور شامخة، نظر إلى المفتاح الحديدي كأنه يريد أن يلقي تحية الصباح عليه أو يقرأ عليه نشيد الوطن، هنا يحمله الحنين إلى بيته المسروق في أم الزينات، حنين بحجم الأمم المتحدة وقراراتها المئوية، حنين بحجم المسافة بين بيته وقاعات الأمم المتحدة في نيويورك، وحنين بحجم الحلم بالعودة، لم يسعفه الحنين ليصل إلى حالة الصوفي العابد المشتاق فمد يده مرّةً أخرى، ولكن هذه المرّة نحو عمقٍ آخر تحت الوسادة، بدأ كالباحث عن حقٍّ بالحياة حين اجتمع قرار الموت عليه، اصطاد الورقة التي اتشحت بلون المعلّقات على جدار الزمن، فتحها بهدوءٍ وسكينةٍ حتّى لا يتلف شيئًا منها فلربّما سيقول له موظف الوكالة حينها أن ورقة

الكوشان مقطوعة من طرفها فهي غير صالحة للعودة، فردها على فخذه حيث كانت أم صالح رحمها الله توسد رأسها حين تتعب أو تستوقفها الحمى، بدأ بتفحص الورقة سطرًا سطرًا، رقم القطعة ورقم الحوض وختم القائد مقام وختم المختاروختم سلطة الأراضي العثمانية، الورقة سليمة إذًا.. أعاد ترتيبها على نحو ما كانت عليه قبل ستة وستين عامًا، حين أخفاها في جيب القمباز الداخلي قريبًا من نبضات قلبه ليبقى دافئًا، وحلم بالعودة كلّ ما يملكه الآن.

بدا أنّه تذكر شيئًا آخر، مد يده لتتجول ثانيةً تحت الوسادة، التقط ورقةً طبعت بحروف آلة كاتبة قديمة بالكاد تظهر الحروف عليها متسخة، ببقعة داكنة اللون في طرفها السفلي الأيمن، لتغطي كلمتين من عبارة "القيادة العامة للجيوش العربية المشتركة"، فاختفت كلمتا "العربية" و"المشتركة" معًا، قرّب الورقة إلى عينيه بمسافةٍ كافيةٍ وبدأ بالقراءة "بناءً على قرار الجامعة العربية بتحرير فلسطين ومحاربة اليهود ومن تبقى من العساكر الإنجليز، فإن القيادة العربية المشتركة تبعث إليكم بتطميناتها ووعودها بالنصر و أنّنا..." واستمر في قراءة الورقة التي احتفظ بها كدليلٍ على وعد عربي بحرية فلسطين، هو يحتفظ بها لأنّ شيئًا ما يقول له أنّها حُجّةٌ إن ما سأله جيلٌ ما عن نكبته.

على الفجر تبقى أقل من ساعة ونصف، توسّد وسادته واضعًا المفتاح أمامه، نظر إليه مطولًا وتذكر.. أدخل يده تحت الوسادة لمرّةٍ أخرى، تحسسها والتقطه، كان على طويته منذ دخل وجميع الخائفين المتعبين إلى كرمة عنب خلف خطوط الهدنة، كانت بطاقةً تحتفظ ببعض ما يشير أنّها زرقاء أصلًا؛ فلونها تهالك كما تهالكت قوانين وقرارات وتوصيات وبنود نوقشت في محفل هنا وهناك، احتفظ بها فهي تحمل صورته الأولى قبل أن

يصبح لاجئًا في أوطان الآخرين، هذه هي بطاقة خروجه من البيت المرتبط بتاريخ الأرض وجغرافيتها، وإذن سفر مع الخيمة التي تبرعت بها الأمم المتحدة على قهره وتهجيره. فتح البطاقة، نظر إلى ما تبقى من صورته حين كان في العاشرة من عمره، تحسسها بإبهامه كأنما يمسح مصباحًا سحريًّا يحقق له أمنياته الثلاثة: أن يعود وأن يعود وأن يعود.. تأكد من تفاصيل الكتابة: الاسم صحيح، العمر صحيح، الطول صحيح، اسم الأم صحيح، اسم البلد الذي جاء منه صحيح، مكان السكن خيمة رقم ٦٦ أيضًا كان صحيحًا حينها، عاد إلى الأعلى "وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيّين- بطاقة لاجئ". قبل تلك البطاقة بيوم واحد كان يحمل شهادة ميلاد موقعة من مختار القرية أنّه مواطن يقيم هنا منذ أكثر من خمسة آلاف عام، كنعاني الأصل فلسطيني المولد من أعمال حيفا.

بدأ بمراجعة ذاتية: أنا لم أتخلص من تلك البطاقة بعد هذه السنوات، ليست لأنّها بطاقة أحوال ولا جواز سفر ولا قسيمة حصول على الطحين الدولي وبعض السكر والعدس، أنا لم أحتفظ بها لأنّ فيها عنوان الخيمة ورقمها وعدد أعمدتها، وتلك اللوحة المعلقة التي تشيد بجهود الأمم المتحدة لإيوائي فيها، أنا لم أحتفظ بها لستة وستين عامًا كي أقايضها بمال أو بأرض بديلة أو بمواطنة في دولة ما، أنا مؤتمن عليها كي أعيدها إلى وكالة الغوث حين أعود ثانية. هو يؤمن بالعودة بمعادلات داخلية وبتفاعلات نفسية عاشها كلّ هذا الأعوام حتّى إن عاد ولم يجد طابون الخبز أو عليّة البيت أو شجرة التوت أو حصيرة شيخ الكتاب.

بدأ الفجر باغتيال الليل، هو كلّ يوم يحلم ببعض الفجر من صباحات أم الزينات، كلّ يوم يتابع طيور السماء علّ طيرًا ما حلق فوقها، علّ هواءها تعلق بين ثنايا ريشه، حين كانت السماء والأرض مملكته أصبحت الخيمة قبره المتنقل بين العواصم، يقبض روحه كلّ يومٍ ألف مرّة.

بعد إقامة شعائره السنوية بتذكر يوم النكبة والخيمة والخيبة أعاد الأوراق والمفتاح تحت وسادته استعدادًا للعودة أو لتشاركه الحلم على الأقل، وقف على قدمه، توجه نحو النافذة الشرقية، وقف أمامها ينظر إلى الشمس تشرق وإلى الوطن يغيب في مثل هذا اليوم من كلّ عام.

احتفال الكذابين..

رائحة العطر الفرنسي تملأ القاعة المخصصة للحفل؛ فقد تم حجزها منذ أكثر من شهر؛ فالحجوزات فيها دائمًا مكتملة؛ فهي قاعة زخرفت بنقوش وزينت بلوحات تم استيرادها من النرويج مباشرةً، في وسطها إضاءة ضخمة تم صنعها في ماليزيا، وفرش الأرض بسجاد إيراني فاخر، كانت بدلته الإيطالية توحي أنّه ذو منصب رفيع فهذه البدلة لا يوفرها المحل إلّا لزبائنه المميزين، كانت الإضاءة المنتشرة في القاعة تنعكس في وجوه الحاضرين عبر ساعته السويسرية التي أهدته إياها زوجته في رحلتها التسوقية الأخيرة إلى أوروبا، كان بالكاد يلامس طرف الطاولة التي وضعت أمامه ليلقي خطابه السنوي بهذه المناسبة؛ فبطنه البارز بشكل بيضاوي كاد يمنعه من ذلك، يداه الممتلئتان وفي السبابة منها خاتم من الذهب الأبيض تتوسطه قطعة من الياقوت الأحمر صغيرة الحجم، ظهر حينما حرك يده إلى المرافق خلفه ليطلب منه أن يحضر الورقة التي تحوي الكلمة المكتوبة، وضع المرافق يده في جيبه وأخرج ورقةً طبعت عليها كلمة الحدث بفكرةٍ من مستشاره الإعلامي وطبعتها سكرتيرة المكتب الخاصة جدًّا، فتح الورقة وأشار إلى المرافق بيده مرّةً ثانية، تقدم المرافق فطلب منه أن يضبط الميكروفون ليكون على مستوى شفتيه، وحين انتهى المرافق تراجع سبع خطوات للوراء وبدأ بإلقاء خطابه:

"في الأوّل من أيار نجدد اعتزازنا بالطبقة العاملة وفخرنا بإنجازاتها الوطنية، في هذا اليوم الخالد نجدد لكم العهد أن نسعى دائمًا للحفاظ على حقوقكم المشروعة وأن نكون نصيركم الدائم وأن نسعى لإقرار القوانين التي تحمي مكانتكم وحقوقكم وتحافظ لكم على عيش كريم وحياة سعيدة، فأنتم

أملنا في بناء دولتنا و أنتم أصل هذا الوطن وعماد الاقتصاد وعنصر التنمية وهدفها..." استمر لأكثر من نصف ساعة في تلاوة خطابه المكتوب دون تلعثم أو خطأ فالخطاب مقتبس من خطاب العام الماضي مع بعض التعديلات الشكلية، ضجّت القاعة المغلقة بالتصفيق والتهليل لهذا الخطاب المميز، انتهت مراسم الاحتفال برقصات ودبكات شعبية تخللتها أغاني وطنية وحماسية، تحرك نحو سيارته المرسيدس الألمانية، طلب من سائقه أن يعيده إلى البيت قبل أن يعود ثانيةً إلى حفلٍ آخر بتلك المناسبة، وصلت السيارة وخرج السائق لفتح الباب، أخرج رجليه من السيارة ثم ما تبقى من جسمه، حذاؤه الإيطالي باهظ الثمن كان يصدر صوتًا عبر الممر المرصوف داخل حديقة بيته الضخم، توقف فجأة.. حدث جلل كاد يفقده صوابه.. بدأ بالصراخ.. تجمّع كلّ من في المكان.. عامل النظافة أيضًا كان من الحضور... استمر في الصراخ والشتم.. الجميع يعيش الصدمة.. طالب بمعرفة المسؤول عن نظافة الممر المرصوف.. أشاروا جميعًا إلى محمود الذي كاد يموت خوفًا.. نظر إليه.. حرك حاجبيه إلى الأعلى.. غارت عيناه.. ارتفعت الشقوق في جبهته.. تحركت شفتاه وبدأ يسبه ويهينه ويصفه بالعامل الحقير.. تمتم محمود بصوتٍ منخفض: ماذا فعلت؟!

أشار بيده إلى الأرض: أوراق الشجر؟

محمود متمتمًا: تساقطت بفعل الريح يا سيدي.

: وتحاول التبرير أيضًا.. (نظر إلى مرافقه وقال): خصم ثلاثة أيّام من راتب هذا الوضيع.

انفضّ الجمع، دخل البيت، تناول عشاءً تركيًّا فاخرًا وتحرك مرّةً أخرى لحفلٍ آخر بمناسبة عيد العمال العالمي..

نظرة عبر النافذة..

الأغطية ذات اللون الأبيض كانت سمة المكان، كان صوت المغذي المعلق يسمع كأنه قصف صاروخي فالهدوء هنا قاتل يحركه أيّ صوت، كانت الغرفة ذات الشبّاك الواحد تحضن سريرين طبيين، فوق أحدهما شاب صغير كُسرت رجلاه أثناء محاولة القفز، وعلى الآخر عجوز سبعيني أصيب بعدة نوبات قلبية وكان آخرها قبل أسبوع لينتهي به المقام إلى هذه الغرفة قرب هذه النافذة، كانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا، حالة من الملل تجول في الغرفة التي ملأتها الأجهزة الطبية والأسلاك الملونة، الشاب الذي عُلِّقت قدماه بحامل موثوق على السرير، حرك رأسه نحو الشريك الآخر بالغرفة، كان ينظر من النافذة ويبدو مستمتعًا رغم كلّ آلام القلب والجسد التي تقعده بالسرير، كأنه يرى مشهدًا ما عبر النافذة لا يراه هو من مكانه البعيد فكان الفضول يشقه نصفين بين السؤال عن المشهد من عدمه، لا يمكن السكوت أكثر فالملل كاد يوقف قلبه فهو هنا منذ وقتٍ طويل، وهنا لا راديو ولا تليفزيون ولا حتّى شبكة إنترنت ليقضي بها وقته، هنا شاب فقير بالكاد وجد مكانًا في غرفة كهذه رغم صعوبة الحالة، حرك العجوز وجهه للحظةٍ باتجاه الشاب المسكين، لاحظ مللًا ما يتسلّل من نظرات عينيه ومن بينهما أيضًا تساؤلات كثيرة ربّما تطفئ ذاك الملل، أدار وجهه مرّةً أخرى نحو النافذة..

: المنظر رائع، لا يمكن تصوُّر أن ترى هذا المنظر من أيّ شبّاك آخر.

: بتحكي معي؟

: أكيد، ما في غيرنا بالغرفة فأكيد بحكي معك.

: شو شايف؟

نظر العجوز إلى النافذة كأنه يحاول نقل الصورة، لم ينظر جهة الشاب وبدأ بوصف الحالة..

: الشجرة الكبيرة بتحركها الريح وورقها الأخضر ثابت عليها والأجمل هو زهورها الصفرا الي يبدو لي أنها قربت تعمل ثمرة، لو تشوف جذع الشجرة والله أعلم إنه عمرها مش أقل من عشرين سنة، يظهر إنها من لما أسسوا المستشفى، الحلو بالموضوع الورد الجوري المزروع بشكل دائري حول الشجرة في منه أحمر و أبيض وأصفر وفي بالنص مقعد حديد أسود قريب عجذع الشجرة يبدو أنه موجود بهالمكان عشان يستظل الي بيقعد عليه بظلها، في أم وبحضنها طفل وفي طفلين بيلعبوا حول الشجرة. (توقف قليلًا وعلامة الدهشة تكسو وجهه!)

: خير شو شفت؟

: البنت الصغيرة مدت إيدها على الوردة الجورية الحمرا وحاولت تقطفها يبدو أنها انجرحت لأنّها تركتها ورجعت عند أمها تبكي، يبدو أنه هالوردة شوكها صعب. (يسكت قليلًا).

: لا شكلها بسيطة رجعت تلعب مع أخوها حول الشجرة (يسكت فجأة): يا ساتر الطف يا رب!

: خير خوفتني شو صار؟

: الولد وهو يركض شبكت رجله بأرض الحديقة يبدو أنه في جذور بارزة للشجرة و اتعرقل فيها.

: طيب كيف حالته هلا طمني؟

يبتسم: لا الحمد لله ما في اشي أمه مسحت الجرح بالمنديل المعطر يبدو أنها إصابة بسيطة وهو قعد جنبها على المقعد الحديد.

: طيب البنت لسا بتلعب حول الشجرة؟

: البنت رجعت تحاول تقطف وردة ثانية.

في لحظةٍ ما دخلت الممرضة وطلبت منهما الخلود إلى النوم لأن الليل انتصف وعليها إطفاء الأنوار، وضع الشاب رأسه على الوسادة وبدأ يفكر بالشجرة والورود والمقعد الحديدي عازمًا على أن يجلس عليه بعد التعافي من الكسور.

: صباح الخير، وقت الإفطار.. (كان صوت الممرضة).

رفع عينيه نحوها وأجاب: صباح الخير.

نظر إلى السرير المجاور كي يلقي التحية الصباحية: صباح الـ..

لم يكن جاره في سريره، سأل الممرضة فأجابته أنّه نقل إلى غرفة العناية المكثفة بعد نوبة قلب جديدة.

طلب منها أن ينتقل إلى السرير المجاور كي يتمتع بالمنظر الساحر، استغربت طلبه وقالت: خليك مكانك أفضل ما في إلّا شارع رئيسي كله سيارات!

سألها عن الشجرة والورود والمقعد، أجابته: ربّما كنت تحلم لا شيء من ذلك هنا..

أصيب بالخيبة...

صلح لم يكتمل..

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا وكانت أم مصطفى وبناتها رانيا وشادية في المطبخ منهمكات في إعداد الغداء؛ خاصةً أن عمهم أبا غالب وبنتيه لونا وسالي وابنه "غالب" مدعوون اليوم لوليمة دسمة بعد خلاف دام أكثر من سبع سنوات بين الطرفين، رانيا اليوم لن تذهب إلى العمل فهي مدرّسة في مدرسة خاصة، أمّا شادية فاختصرت يومها الجامعي بمحاضرة واحدة فقط، فأبو مصطفى لم ينجب سوى بنتيه وهو أيضًا أغلق محل بيع الهدايا والتحف مبكرًا ليكون في استقبال ضيوفه، فهي الفرصة الأخيرة لحل خلافهم الذي تسبّب به خلاف على نوع العمل، فشقيقه أبو غالب الذي كان يقاسمه المحل كان ينوي تغيير النشاط إلى مطعم فلافل وحمص، وأبو مصطفى مُصِرٌّ على بيع الهدايا والتحف فقام أبو مصطفى بإخراج شقيقه من المحل مُهددًا إياه في حال الاقتراب، وبعد كلّ هذا الجفاء وبعد أن حاول صاحب العمارة إخراج أبي مصطفى بالقوة من المحل كان لا بد من توحيد الجهود، وبوساطة أبي جميل البطة وفي بيته اتفق الطرفان على المصالحة، وكمبادرة حسن نية قام أبو مصطفى بهذه الوليمة الدسمة.

الساعة الواحدة والنصف، دق جرس الباب، كانت عائلة أبي غالب والبنات وغالب الذي أنهى للتو دراسة القانون في إحدى الجامعات مكلفًا والده مبيعات الفلافل والحمص لأربعة أعوام، أبو مصطفى تخط البسمة على شفتيه من اليمين إلى اليسار، أبو غالب تتشقق خدوده من الابتسامات، أم مصطفى تطلق عبارات الـ"أهلا وسهلا" بكل ما أوتيت من قوة الصوت، شادية ورانيا تجران لونا وسالي إلى الداخل وعشرات القبلات تطبع على الخدين من كلا الطرفين، غالب يقبل يد عمه اعترافًا بنهاية عهد طويل من

الجفاء، مائدة الطعام التي تغطي أرضية الغرفة توحي بعظم المناسبة، دجاج مع رز وبازيلا، شوربة لبن، دجاجتان محشوتان، طنجرة ورق عنب وتحتها قطعة من لحم الخروف، صدر خروف محشي، سلطات منوعة، ألبان، عصير بثلاثة ألوان.

: أبو غالب صدر الغرفة. قال أبو مصطفى.

: لا والله إلا انت. أجاب أبو غالب.

وبين شد وجذب وسحب وحلفان كان لأبي مصطفى ما كان وتوزعت العائلتان على المائدة..

: جيرة الله عليكم ما حدا يستحي ما في اشي من واجبكم. عبارة العزايم المشهورة قالها أبو مصطفى.

: مغلبين حالكم يا أبو مصطفى الأكل كثير. الجواب النموذجي قاله أبو غالب.

: ما في اشي من قيمتكم أهلا وسهلا كلي يا خالتي يا سالي. أجابت أم مصطفى.

مائدة الطعام كانت مسرحًا لعملية حربية استغرقت أكثر من نصف ساعة من الزمن، وكان غالب أوّل الحضور بحثًا عن المغسلة ليتبعه البقية بالتواتر.

بعد جولة الطعام الصعبة و انتقال الضيف ومرافقيه إلى ساحة الدار حيث الوقت عصرًا والجو لطيف كان لا بد من البدء من تقديم المكملات، "هاتوا سدر الكنافة"، صاح أبو مصطفى، "هاي جبتها من محل أبو نايف بسلم عليك وعزمنا على عرس بنته بوم الجمعة".

"سدر الفواكه يا بنت، هاتو القطايفات، هاتو البزر والكظامة، هاتو شراب الخروب، هاتوا شراب المشمش". كانت سلسة الطلبات التي طلبها أبو

مصطفى قبل الحديث عن مستقبل العلاقات مع شقيقه وعن آليات مواجهة المرحلة.

"هاتوا البطيخة"، أم مصطفى تحضر بطيخة تتجاوز في وزنها العشرة كيلوغرامات، أبو مصطفى يضرب على البطيخة ويبتسم قائلًا: "حمرا". ويبدأ بتقطيعها.

: تفضلوا البطيخ يا جماعة. أبو مصطفى داعيًا الضيوف.

: شكرًا عمو أنا ما بقدر أكلت كثير. تجيبه لونا.

: عمي أنا ما رح اقدر. يجيبه غالب!

: عمي أبو مصطفى صحتين كلو انتو أنا ما بدي. تجيبه سالي!

: ليش شقختها والله ما في مكان. تجيب أم غالب!

: والله يا أبو مصطفى ما بقدر احط اشي بثمي! يجيبه أبو غالب.

أم مصطفى تنظر إلى أبي مصطفى من فوق لتحت، أبو مصطفى يشعر بالمؤامرة، أبو مصطفى يحلف بالطلاق "ما بتم الصلحة إن ما أكلوا حز البطيخ"، أبو غالب يعترض ويقول "مش مستاهلة تحلف طلاق"، أبو مصطفى يصعد ويتهم أبا غالب بسوء النوايا، أبو غالب يحتج ويهدد بالمغادرة، أبو مصطفى: مع السلامة درب توخذ ما ترجع. عائلة أبي غالب تطرق باب البوابة الحديد بقوة دالة على الغضب، أبو غالب يتمتم: الحق مش عليك الحق على الي اجى عندك!

حكاية دافع الضريبة..

كان ياما كان أيّام الدولة التركية وفي فترة اشتداد الحروب، حين كان جنود جناب مولانا الحاكم يجمعون الضرائب من السكان، فكان بيت أبي عثمان أحد هذه البيوت، فالجنود ببندقياتهم الطويلة والطرابيش التي تميزهم بالبدلات العسكرية وقفوا على بيت أبي عثمان الله يرحمه، وطرقوا الباب فأطل عثمان المزارع المسكين عليهم فطلبوا منه الضريبة التي أقرتها الحكومة، ودون تذمر ذهب إلى حيث ينام ووضع يده تحت الوسادة وأخرج لهم خمسة ليرات، حين كانت الليرة تساوي مائة دينار هذه الأيّام، هي كلّ ما جمعه من محصول القمح لهذا العام، قالوا له جهز ضريبة العام المقبل وانصرفوا غير مأسوف عليهم إلى بيت جاره أبي محمود، عاد عثمان يحك رأسه ويفكر كيف سيدبر أموره وقد أعطاهم جل ما يملك، وفي انغماسه في لحظة تفكير كانت أمه قد دخلت للتو حاملةً جرة ماء ملأتها من نبعة القرية وسألته..

: العسكر كانوا هون؟

أجابها: آه يما كانوا هون.

: شو كان بدهم هالغايرين؟

: كانوا بدهم ضريبة السنة.

: اوعك تكون أعطيتهم؟!

: آه أعطيتهم الخمس ليرات الي حيلتنا.

سقطت الجرة المملوءة بالماء لتغرق الأرض بماء النبعة ور افقتها شهقة من أم عثمان وسيل من الشتائم لولدها الضعيف أمام طلب العسكر..

: ولك يا دلدول يا اهبل يا خويفة أعطيتهم الليرات هيك يم من أولها؟

: شو أعمل يما هو أنا قد الحكومة؟

: الله يرحم أبوك كان ينشف ريقهم مش متلك.

: ليش أبوي ما كان يدفعلهم؟! (مستغربًا).

: أبوك كان زلمة كانوا يجو عالدار ويطلبوا منه الضريبة ويرفض ويقلهم هاي رزقي رزق ولادي كيف أعطيكم اياه.

: الله أكبر الله يرحمك يابا كان زلمة آه وبعدين؟

: يجو يطلعوا برة ويظلهم يضربوا فيه بأيديهم تا يتعبوا وما يو افق.

: عشت يابا.

: يضربوا بالبواريد وبالعصي ويخبطوا عليه وما يرضى.

: زلمة.

: يرفعوا فلكة وهو بقول عبود وسبع جدود ما بتوخدهن.

: والله اشي برفع الراس.

: أقلك أبوك كانوا يجروه وراهم بالخيل ويسحلوه عالأرض أبوك كان زلمة.

: بتعرفي إنه أبوي الله يرحموا كبر بعيني يعني كلّ هالي بيعملوا فيه وما بدفع يمة؟

: لا كان يدفع بس بعدما ينشف ريقهم!

كول..

لافتة ضخمة يتجاوز طولها المتر والنصف وعرضها نصف المتر، ذات أرضية بيضاء كتب عليها بالخط الأحمر "أنت وضميرك، قاطع الآن" وتحتها على مسافة قصيرة وضعت على أرضية القاعة طاولة من الخشب المستورد بنية اللون تظهر اهتمامًا من المنظمين بالحدث تتجاوز في حجمها طاولة مدير بالدرجة الأولى في إحدى الشركات التسويقية المهتمة بشكل البائع وتفاصيل مكتبه، خلف الطاولة جلس رجل في الأربعين من العمر يتناسب طوله عكسيًا مع بروزين أحدهما في بطنه والآخر في الجهة الأخرى، أصلع من منتصف الرأس يلبس بدلة سوداء، استقر بنطاله تحت البطن النافر بزاوية ٣٠ درجة ووصلت فيها سترته إلى ما فوق الركبة بقليل، وهذا طبيعي إذا ما طبقنا نظرية مساحة الخصر مع الطول، ويرتدي ربطة عنق زرقاء على قميص زهري بارد اللون في محاولة للظهور بأبهى صورة، علبة السجائر الأمريكية الصنع التي وضعها على طرف الطاولة دليل على أنّه ميسور الحال، وفي المقابل من اللوحة جلس الحضور، ممثلون عن القطاع العام والخاص والمحلي والدولي وشبه الحكومي والحزبي والتنظيمي، وحتى حقوق الحيوان وجهت لهم الدعوة.

صوته الحاد بدأ بالخروج فالصوت دائمًا شاهد على اللحظة والحالة: يجب أن ندعم اقتصادنا المحلي بكل الوسائل الممكنة.. إن معركة النضال مستمرة بكافة الوسائل وإن الاقتصاد هو أهمها وربما الأهم.. وإن الحرية تبدأ من كيس الطحين.. يجب أن نحارب من أجل اقتصادنا الوطني بكل ما أوتينا من قوة.. علينا أن لا نستسلم.. علينا رفض التبعية الاقتصادية مهما كان الثمن.. يجب أن نشجع المواطن أن يشتري المنتج المحلي وأن نشجع التاجر أن يبيع المنتجات المحلية.. نحن نقدم شكرنا لكل الدول الأوروبية التي أعلنت

مقاطعة منتجات المستوطنات الإسرائيلية ونحن نعتبرها خطوة في الاتجاه الصحيح.. إن المنتج المحلي لا يقل جودة وكفاءة عن منتجات الاحتلال، علينا أن...

اشتدت حدة كلامه، بدأ اللعاب ينفجر في وجوه القاطنين بالصفوف الأمامية، حالة من الشعور الوطني غشيت الحضور، كلهم يستمع بحماس شديد، يا له من موقف وطني رائع ومشرف، نعم.. كلّ شيقل تشتري به منتجًا إسرائيليًّا سيهبط علينا رصاصة أو قذيفة أو سيكون من راتب جندي على حاجز أو سياسي متطرف، بدأت رائحة الوطنية تتصاعد كما يتصاعد بخار الماء فوق المحيط، رفع يده يحركها يمنة ويسرة واللعاب يتطاير في الأرجاء.. أشار لمرافقه أن يحضر له الماء فالعطش وصل إلى أحشائه.. تحرك المرافق بسرعة.. ذهب إلى الثلاجة الخاصة الملحقة بسيارته السوداء الضخمة.. أحضر قارورتين من الماء دامعتين من شدة البرودة.. تسران الناظرين.. وضعهما على الطاولة.. كان الجميع يصفق بحرارة وفجأة.. كتم الصوت.. توقفوا عن التصفيق.. توقفوا عن الهتاف.. توقفت انبعاثات الوطنية عن التسرب... عيونهم نحو الماء البارد.. الجميع يبلع ريقه... قلوبهم طارت في السماء.. عقولهم تشتّتت.. حاول رفع صوته بحماس أكبر.. لا استجابة.. كرر كلمة وطني سبع مرات متتالية... لا أحد يهتم.. فاستعان بكلمة ضميرك وكررها ثلاث مرات.. لا تحيد عيونهم عن الزاوية اليمنى من طاولة الخشب حيث قارورتي الماء المعدنية... نظر إلى عيونهم فرآها تسافر هناك إلى قارورة الماء الدامعة من البرد.. لا يمكن أن يكون الجميع عطشى.. إذن ما السبب؟! دقق النظر.. نظر إلى مرافقه بغضب.. نظر إلى الحاضرين بخجل.. ونظر إلى العبارة المكتوبة على قارورة المياه المعدنية "كول"– صناعة مستوطنة.

فجرًا على الحاجز..

بدأ صوت المنبه بالرنين، صوت مزعج متكرر منذ أكثر من عشرة أعوام عندما قرر ترك التعليم لأن حالتهم المادية لا تسمح له بالالتحاق بالجامعة، مع أنّه حصل على معدل ٨٣,٦ في الفرع العملي، ولكن لسوء حظه أن والده توفي بعد صدور النتائج بأسبوعين فقط، وكونه أكبر الأبناء لعائلة مكوّنة من ثلاثة ذكور وأربع إناث وأم تغسل الكلى في المستشفى الحكومي كلّ يوم أربعاء؛ فاضطر للانقلاب على حلمه بأن يحصل على شهادة في إدارة المؤسسات العامة لأنه أصبح في مواجهة الواقع، وبعد أسبوع من انتهاء مراسم العزاء لوالده جاءهم جاره أبو محمود الذي يعمل بنّاءً في ضواحي مدينة حيفا التي تبعد عن بيتهم بالكيلوات الهوائية أقل مما تبعد أقرب مدينة عن قريته، ولكنها في الحقيقة يفصلها جدار يتجاوز طوله الأمتار الثمانية وجيش من المجندات والمجندين يصل عدده إلى المليون في حالة الذروة، وكثير من قرارات الأمم المتحدة المعطلة وقرارت الجامعة العربية المهملة، أبو محمود صاحب الكرش البارز والبشرة السمراء التي ألهبتها شمس الساحل كان كريمًا في عرضه..

: بتشتغل معي وبعطيك مية شيقل في اليوم.

: بس أنا ما بعرف بالشغل اشي!

: مش مشكلة بتتعلم ما انت بقولوا عنك ذكي وبعدين مين بينولد متعلم من بطن أمه!

: طيب من أيّ ساعة لأيّ ساعة الشغل؟

: من طلعتها لغيبتها.

: أنا ما معي تصريح ادخل هناك!

: فش مشكلة أعطيني صورة هويتك وبنقدملك على تصريح.

: بو افقوا؟

: آه ليش ما يو افقوا هو انت عليك اشي ولا جاي فيهم؟

: لع.

: خلص هاتلي صورة هوية والأسبوع الجاي حضر حالك.

صوت المطر كان يعلو ولكن دون أن يغطي على صوت منبه الجوال الذي بدأ يذكر أن الساعة هي الثالثة فجرًا، وأن عليه أن ينهض الآن وعلى النحو المعتاد ليدخل الحمام ويلبس ملابس العمل التي تتموّج عليها الألوان الداكنة، ما بين لون الخشب والتراب والزيت الأسود الذي يطلى به الخشب، وبعض من صدأ الحديد الذي اعتاد على جر قضبان منه بقطر ١٦ملم تكون باردة جدًّا شتاء أو ملتهبة صيفًا لتزيد عليه تنغيص الحياة اليومية، كان صوت أمه بالمطبخ يعلو كلما مدت يدها بين مجموعة الصحون والكؤوس المختلفة الأشكال لتصب في إحداها الشاي الذي اعتاده صباحًا كي يكسر ريقه كما كانت تقول أمه، فتح الباب الذي أقفله ليلًا بالمفتاح، أربع طقات قبل النوم لأن الدنيا ليست بأمان.

: ياسر نسيت الزوادة يمَه.. (صوت أمه من خلفه).

: تسلمي يمَه ادعيلنا..

يتناول ما حضرته له من البيض المسلوق وعلبة لبن صغيرة ورغيف من الخبز ويلتف جيّدًا بالسترة التي يرتديها؛ فالبرد سيهاجمه من كلّ حدب وصوب بمجرد فتح الباب.. وصوت أمه ينهج بالدعاء ما بين الرزق الحلال والتوفيق والسعادة و"مهونة يمَه".

كان الحاجز مزدحمًا هذا الصباح والمطر يقسم العمال نصفين، فمنهم من أظلته ألواح الصفيح التي وضعها الجنود لحمايتهم أوّلًا من الحرّ والقرّ

وهم منتسبو الصف الأول من العمال، أمّا البقية ومنهم ياسر فقد اصطفوا في منطقة مكشوفة للسماء، نقاط من المطر البارد تزيد من شعوره غير الاعتيادي بالبرد هذا الصباح.. الساعة الرابعة والنصف فجرًا، صف طويل من العمال وجنديان فقط هما من يدققان جيّدًا في مقارنة بين الهوية والتصريح، ربّما سيحتاج إلى ساعة أخرى، حمل الجوال وقرأ رسالة وصلته للتو "الآن اشترك في خدمة رنلي بنصف السعر اتصل على ١٩٥" فحص الرصيد فوجده كافيًا، عاد إلى الرسالة لتذكر الرقم وبدأ بالتنقل بين المقاطع الصوتية، ازداد المطر تساقطًا، ألواح الصفيح بدأت تضج بصوت طرقات المطر، العمال في أماكنهم يرفع أحدهم كيسًا من البلاستيك فوق رأسه ليتقي المطر، نظر ياسر في كلّ مكان، شاهد صندوقًا من الكرتون ملقى في المنطقة المصفحة ما زال جافًا يبدو عليه صورة برتقال، ركض نحوه، صوت الجنود..

: وقف.

صوت المطر على ألواح الصفيح يعلو فوق كلّ الأصوات، صوت الجنود..

: ارجع لورا..

المطر غزير، لا ينظر إلى أيّ مكان سوى إلى صندوق الكرتون الملقى على الأرض، زخة رصاص، كان قد وصل، سقط على الأرض، الدماء غطت صورة البرتقال، لفظ نفسه الأخير، أمه كانت تصلي، شيء ما تحرك في داخلها، أحست بحاجةٍ إلى الاطمئنان عليه، صوت المزراب كان يقلقها فكان دلالةً على المطر الغزير، تناولت الهاتف، وضعت الرقم، ظنت أنّها لم تكتبه صحيحًا فهاتفه له صوت واحد: توت.. توت.. أعادت الرقم مرّةً أخرى.. تأكدت منها، أنّه رقم ياسر: استمعت إلى المقطع الصوتي "ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا". لم يجب أحد.

رسالة في عيد الأم..

في ليلة العشرين من آذار وحين ترجلت عقارب الساعة عند منتصف الليل كان صوت أقفال الغرفة رقم ٢٠٥ يصدر ما يوحي أن وقت اللجوء إلى الفراش قد وجب، توجه إلى وسادته المتعبة التي شاخت من انتظارها لحريته وما شاخ، وسّد خده في مواجهة الجدران الباردة، كان ما يراه هو سواد المكان، رائحة الكرامة تعبق في الغرفة التي يقطنها سبعة أسرى آخرين كلهم انفرد مع حلمٍ ما في ركن الغرفة، هذا يحتضن طفله الصغير "مجد" وذاك يغمض عينيه فيرى رؤيا ما في بيته حيث زوجته تنتظر وآخر قلق على مصير أرضه القريبة من مستوطنة عشوائية، وأخر لهم أحلام لم تكتب بعد، كانت برودة المكان تتخلل ما بين جلده وعظامه، سحب البطانية أكثر من مرّة، لم يفلح في أن يجذب دفئًا يكفيه فقرر أن يثني ركبتيه على البطانية منقوصة الدفء لتمنحه بعضًا من دفئها، تسلل دفء إليه وبلحظة ما جاءت أمه لتدثره بغطاء أكثر دفئًا أو هكذا خيل له، لم يرق له النوم وكل ما يراه هو جدار أصم فتحرك حركة كاملة ليكون في مواجهة مشهدٍ آخر، خيالات "أبراش" لم يرها تمامًا ولكنه استشعر طوفانًا من الأحلام تموج فوقها، وضوء يرسم شكل قضبان طاقة التهوية المرتفعة ليأخذه تحليل الحالة إن كانت أضواء السجن الخارجية أم أنّه ضوء القمر، فكان لا بد من خوضٍ في التقويم وأيّ يوم قمري هو اليوم، تحرك بين شباط وآذار وبعض من نيسان ليصل إلى حقيقة مفادها أنّها ليلة الحادي والعشرين من آذار، أقام عصفًا ذهنيًّا في ما بقي له من ذكريات عن آخر ما قام به في مثل هذا اليوم قبل اعتقاله باثني عشر عامًا، لم تكن الطريق ممهدة للوصول إلى حيث يريد الهبوط، سنوات وسنوات وسنوات تقف مانعة بينه وبين ذاكرته، تحرك

بجسمه مرّةً أخرى ليكون وجهه في مواجهة الجدار ثانية، وهنا انتفض من سريره كما تنتفض طائرة إذا ما خرقت حواجز الصوت، إنّه الحادي والعشرون من آذار، إعصار من شوق لأمه أثار حواسه الخمسة وحواس أخرى لم يصنفها علم الأحياء، كان لا بد أن يقول لها شيئًا، شوقه، حبه، اعتذاره، حنينه إلى طفولةٍ ما، حاجته لكل ما يتعلق بها، أحاطت به ذاكرته هذه المرّة، كانت آخر هداياه لها سلسلة فضية تحمل خارطة الوطن الكاملة، كانت أيضًا فضية فهي لا تحب الذهب ولا تطيق بريقه كما كانت تزرع في وجدانه قبل أن يصبح ثائرًا، فكر في أن يتخيلها في المطبخ تعد له طعامًا أدمنه من بين أنفاسها، دخل البيت وبين يديه هديته السنوية التي أصر دائمًا على اقتناص ثمنها من مصروفه اليومي، كانت دائمًا تعاتبه على هذه الفعلة فهي تعلم جيّدًا أن ما يحصل عليه من مصروفٍ بالكاد يكفي وصوله الجامعة، علّق هديته الفضية حول عنقها وقبّل هامتها، وسط دعائها الذي اعتاد أن يسمعه منها كلّ يومٍ مع جرعة زائدة في تلك اللحظة، أعادته لسعة برد مزعجة إلى حيث الغرفة، لقد اعتاد أن يهديها كلّ عامٍ ما يمكن أن يهديه، حركته الأفكار بين هناك حيث هي وبين هنا حيث لا وصف، فتحركت يداه إلى رفع الوسادة ليتناول دفتره ذا الحجم الوسط وقلم حبر أزرق جافًا يخفيهما ليكتب أحيانًا ما لا يمكن أن يقوله لأحد، اعتدل في جلسته وأمعن النظر في صفحة فارغة في الدفتر ولكنها عتمة السجن، فبرقت عينه نحو بقعة الضوء التي تتوسط غرفة المعتقل، فكأنما وجد صيدًا هاربًا لاحقه ربّما خشية من أن يسبقه غيره ليكتب شيئًا ما هناك، الأرض باردة فسحب بطانيته وغطى بها ما تيسر من الأرض، وجلس متربعًا كما تعلّم عند شيخ الكتاب، فتح الصفحة قبل الأخيرة من دفتره الذي تهالك بفعل عوامل الاحتكاك بوسادته العجوز فهو عشيقها الليلي، خطته كانت كتابة رسالة إلى والدته أملًا أن يتمكّن من

تحريرها عبر أحد رفاقه الخارجين بعد حين، أميرتي، لا لا، غطاها بالحبر رغم ندرته، مليكتي، لا لا، إنّها قيمة أكبر، وعاد يهدر من حبر القلم ليغطيها، أمي، بدأ صوت المطر يُسمع في الخارج..

قررت يا أمي أن أكتب هذه الليلة ما يمكن أن أقدمه لك كهدية في هذا اليوم، فأنا يا أمي لا أملك الآن أكثر من عمري أقدمه للوطن، ومن كلماتي المعبوقة بطعم شوقي ومحبتي والمترادفة مع كلّ أمنياتي بنظرة إلى عينيك أو القدس أيهما أسبق، وهذا ما ينقصني.

أعرف يا أمي أنك الآن تصلين صلاة الليل وأكاد أسمع دعاءك كلما علا في السماء أن أكون بخير، وأن تراني عيناك قبل الرحيل وأن يخفف عني ما أنا فيه، وأنا يا أمي بخير كلما تذكرت حكاياتك الأسطورية عن جدي الذي خرج بسلاح عثماني لكي يحارب الدولة البريطانية والعصابات الغازية حينما قرروا أن يسرقوا الوطن، وما زالت رائحة البارود المنبعثة من بندقيته تعطر أنفي كلما غادرت في الذكريات إلى تلك الحكاية.

أمي، لم أعد أعرف عن المطر سوى صوته الذي يضرب خارج جدران المكان، أعرف يا أمي أنك كنت أكثر من يحتمل أسئلتي الكثيرة وها أنا أعود طفلًا أحتاج منك الإجابات، هل ما زال المطر يسقط دافئًا كما اعتدت عناقي، هل تفوح منه رائحة التراب الذي يغطي السهل حيث اكتست حبات العرق المصبوبة من جبينك في موسم الحصيد؟ وهل ما زالت الأرض تفرح فرح الحجاج بيوم النفير إن صادقه المطر؟ والبرق أما زال ضوؤه ينير الطريق إلى بيتنا؟

أمي، أعلم أنك تنتظرين كما شجرة التين التي زرعها والدي عند ولادتي، كانت تغطينا في الصيف ونجمع ظلها وتينها، تينها؟ كيف هو طعم التين يا أمي؟ أنا لم أتذوقه من يديك الساحرتين منذ عقد وأكثر؟ هل ما زالت تينتنا هي

الأفضل بين شجر الجيران؟ كم أتوق يا أمي إلى حبة تين صباح يوم الجمعة كما اعتدت أن أطعمها على فطورنا.

أمي، ما زلت أسمع همس الحكايا التي اعتاد البيت بتفاصيله الكبيرة والصغيرة وحتى نجوم السماء سماعها بلهفة، كلّ شيء في الكون كان يلتف مُتحلِّقًا ليستمع إلى حكاياتك الجميلة، خاصةً عندما كنت تحكين عن لهفتك لتريني أدخل المدرسة وأخرج للجامعة وأكون أبًا تحتضنين بنيه، شجرة الليمون أيضًا كانت تستمع الحكاية وترفع أغصانها للسماء تؤمن دعاءك لي بكل ما هو جميل.

أمي، أعرف أن لفحات الشوق قاتلة أحيانًا وأعرف أيضًا أن شجرة الزيتون قد أوهنت صبرًا على زمانها وأستطيع وبكلِّ بساطةٍ أن أقول أن انتظار اللقاء وقرقعة القهر ولهيب القلق قد أصبح زادك اليومي، وأصبح أنينك الشفوق على ما أنا فيه، زفير يحرق من لحظات العمر الجميلة ما يصل إليه، ولكنه يا أمي وطن معلق في الأعناق يحيط الرقبة، يحدها الوريدان شرقًا وغربًا والعين شمالها والقلب يسندها، إن تعبت تتربع بين التاجي والتاجي مالكة ما يدفقه من دماء يخلطها شوقنا لرؤية الشمس دونما ترجمان.

أمي وفي غياب قد يطول، أعلم أن السنين بنت أعشاشها بين ثنايا تجاعيد يديك، وسكنت سنين غيابي عنك تجاعيد القلب تتعبه مرّةً وتبكيه أخرى فأراكِ مجهدةً كما سوسنة في أواخر نيسان خطت عليها الشمس والريح خطوط التعب، و أفهم يا أمي أنك وبرغم ذلك لا تنكرين عليّ أن أكون عاشقًا لهذه الجميلة المعلقة تشرق بالقرب من قلبك الماطر بحبها، فهل كمثل شوقكما شوق أو كمثله رغبة بالعناق.

أمي وقد غبت عنك طويلًا.. طويلًا أتوق لأن أعقد صفقتي الأخيرة فأحمل عنك الهموم أجمعها إلى بعض همومي وأسرق من جبينك بعض التجاعيد المكنوزة بالحزن على فراقي الطويل، وألملم من شعرك الأبيض حزمة لامعة أجمعها بين أشيائي، ألقي عليها السلام صباح مساء وأحفظها تحت وسادتي العجوز عليها تشعر بالخجل كيف عجزت وترهلت وهي لا تحمل إلّا رأسي، وما زلتِ قويةً بحجم العاصفة تعزقين تحت الزيتونة الكنعانية بفأس صغيرة و أنت تحملين وطنًا بين ثنايا القلب، أستبدل تلك الشقوق من التجاعيد الزمنية والشعرات البيض ودعاء الليل بعمر آخر نتقاسمه يومًا، نشغل حيزنا في ظل التينة ونقطف حبات الزيتون ويكون القلب وسادتي الجديدة أسمع منه نشيد الحرية والنصر.

أمي...

حاول أن يكتب سطرًا آخر، فاضت عيناه من الدمع، سقط الدمع على الورقة، أرهقه السهر فاستلقى فوق البطانية في بقعة ضوء قدّر بالتقويم الهجري أنّه ضوء القمر.

حكاية فيلم..

الصورة واضحة.. أبنية من الحجر تقول هنا فلسطين التاريخية.. جنود يحملون قطعًا حربية كافية لتشكيل فيلق عسكري.. ويبدو أنهم من كتيبتين عسكريتين حسبما يظهر من لباسهم في الصورة.. الكاميرا تحملها صحفية أجنبية.. أربعة جنود وصحفية، وطفلان فلسطينيان هما ما يصنعان هذه الحلقة وإليكم الترجمة..

الصحفية: هما لم يفعلا أي شيء لقد رأيتهما لماذا تعتقلهما؟
لسان حال الجندي: هما فلسطينيان وهذا يكفي.
الصحفية: لقد شاهدتهما لم يقوما بأيّ شيء!
الجنود يبدو عليهم الخوف من الإجابة أوّلًا ومن الأطفال المحيطين والذين بدؤوا بالنظر إلى المشهد من خلال فتحات الأبواب.
لسان حال الجندي: إنهما يقيمان على هذه الأرض وهذا كافٍ لإدانتهما.
الصحفية: أنت تراه جيّدًا إنّه يأكل من كيس "الشيبس".
لسان حال الجندي: لقد قبضنا عليه بالجرم المشهود، إنّه يحاول الحياة ويبدو أن الكيس صناعة فلسطينية، أي أنهم يحاولون بناء اقتصاد وطني وهذا يكفي لاعتقاله.
الصحفية: إنّه صغير على الاعتقال فلماذا تعتقله؟ إنّه أقل من ثلاثة عشر عامًا. لسان حال الجندي: نحن نعتقل الفلسطيني دون تمييز بسبب الجنس أو العمر أو الحالة النفسية أو الجسدية، إنّها الديمقراطية الإسرائيلية.
الصحفية: لماذا تعتقلون الأطفال؟
الجندي هذه المرّة يخرج عن صمته: توقفي، لا تتبعينا، لا علاقة لكم

بالموضوع.
صوت بكاء الأسير الذي يبدو من طريقة الإمساك به أنّه يمثل خطرًا على وجود الجنود وحكومتهم بدأ بالارتفاع تدريجيًّا. فلسطيني شاب يظهر في الصورة يراه الطفل كما نرى آباءنا يواجهون كلّ العالم من أجلنا.. الحالة مختلفة.. الشاب يحاول تخليص الطفل وصوته بالبكاء والاستغاثة يرتفع.. وكيس الشيبس يظهر الحقيقة التي حاول الجنود إخفاءها.
الجنود يدفعون الشاب.. الصحفية تستمر بالتقاط الصورة، الطفل يبكي قائلًا أنّه لم يفعل شيئًا... الشاب مُصِرٌّ على أن يجعل من طفل تعتقله كتيبة جندٍ بطلًا أسطوريًا بطلب التوقف عن البكاء.. الطفل مُصِرٌّ على طفولته ويبكي. فيما طفل آخر على الجهة الأخرى يقنعه أنّه رجل ويقول لا تخاف فالطفولة لا تعني هنا شيئًا، عليك أن تكون ندًا.
الطفل يستمر بالبكاء بالرغم من كلّ المحاولات بإقناعه أن أطفال فلسطين لا تستثنيهم قيود الاحتلال وأن جميع البروتوكولات الملحقة باتفاقية جنيف لحماية الأطفال في النزاعات المسلحة لا تعني لهذا الجندي سوى هراءات أوروبية ليس إلّا.
الصحفية في سؤالها للطفل: ما اسمك؟
الطفل الذي يحمل حقيبة مدرسية فيها كتب عن الحرية وفيها قصيدة "موطني"، وكان من واجباته لهذا اليوم أن يعيد كتابة جملة "ونحن نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا" سبع مراتٍ متكررة على كراسة الخط يجيبها: نور.
الصحفية تسأله عن عمره.
يجيبها أنّه أحد عشر عامًا أي أنّه ما زال في المدرسة الابتدائية!
الصحفية ترددها: أحد عشر عامًا! نعم إنّه كذلك وربما كانت لا تعلم أن

هناك حوالي أربعمائة طفل فلسطيني موزعين على السجون الإسرائيلية وأن كلمة طفل حسب المفهوم العالمي للطفولة لم تعفِ أكثر من مائة وثلاثين طفلًا فلسطينيًّا من الحصول على أحكامٍ بمددٍ متفاوتة.

الصحفية: إنّه صغير جدًّا على الاعتقال! موجهة كلامها للجنود الذين أداروا ظهورهم للعالم.

"إلى أين تأخذونه؟" صاحت الصحفية فيما نظر الجندي بما تكدس على وجهه من استخفاف بسؤالها وفي عينيه من خبث الدنيا.

الطفلان المعتقلان كبرا ألف عام فجأةً وتوقفا عن البكاء.. الصحفية تقول أن اعتقالهما غير قانوني، الجنود يديرون ظهورهم للعالم مرّةً أخرى.

الصحفية: إنهما لم يفعلا أيّ شيء لاعتقالهما لمَ تعتقلهما؟

ربّما أن الصحفية التي تبدو من لهجتها بريطانيةً تعقد مقارنة سريعة بين حال الأطفال البريطانيين الذين تعودوا في مثل هذه الساعة على تناول الشاي مع الكعك الإنجليزي ثم النوم للاستيقاظ باكرًا وبين حال نور!

الجنود يصلون محطتهم الأخيرة وينظرون إلى الكاميرا أخيرًا ويقول أحدهم بلهجة عربية سخيفة: تفضلوا! سلالم حديدية وفي نهايتها باب أزرق من الحديد يذكرنا بأبواب المعتقلات الإسرائيلية التي يقبع بها بقية الأطفال.

الصحفية: لماذا تعتقله هل يسمح القانون الإسرائيلي باعتقال الأطفال، إنهم أصغر من أن يعتقلوا؟

الطفل المعتقل ما زال يتشبث بكيس الشيبس الذي لم يأكل منه طوال الفيلم، الصحفية تُصِرُّ على أن ما يحصل هو ضرب من الجنون، الجنود يقتادون الأطفال خلف البوابة الحديدية الزرقاء ويقفلونها خلفهم...

الأطفال سيخرجون يومًا ولكنهم لن يصدقوا بعدها أن الطريق إلى السلام ما زال ممكنًا.. الصحفية أيضًا أصبحت مؤمنة بذلك.

قصص غيرو اقعية أبدًا..

صلاح الدين الأيوبي ودرس التربية الوطنية

جلس عامر على مقعده الخشبي الذي يتسع له ولزميله منصور، ذلك السمين الغبي ذي الشعر الأسود المجعد، كان المعلم مُسهبًا في الشرح عن صلاح الدين الأيوبي وخططه العسكرية وحروبه لتحرير القدس، نظر إلى المعلم وقد كان فخورًا بالحديث عن حروب السيف والمنجنيق والجيوش والخيول والاتفاقيات المشرفة، انتهت حصة التاريخ، خرج المعلم من غرفة الصف ثم عاد بعد الدقائق الخمسة.. بدأت حصة التربية الوطنية.. قال المعلم: افتحوا على درس السلام، صفحة المعاهدات، ضحك منصور حتّى ظهرت أطراف بطنه الممتلئة وفتح عامر الكتاب.

نظرية داروين وكتاب الثقافة الإسلامية

: علينا أن نعلم أن القرآن الكريم قد تكلم وبشكل لا يقبل التشكيك عن خلق الإنسان وكيف أن الله خلقه من تراب ونفخ فيه من روحه.

ماجد وكان يجلس في المقعد الأقرب للمعلم رفع يده مستفسرًا..

: ولكن يا سيدي جاء في امتحان علم الأحياء أن الإنسان كائن متطور حسب نظريات داروين في الخلق، فكيف تقول أنّه خلق في أحسن تقويم؟!

المعلم وقد أصابته ربكة في اللسان: علينا إطاعة ولي الأمر فيما يقول!

كتاب التاريخ في العام ٢٠٥٠

بعد أن أنهى إجراءات التفتيش اليومية على حاجز قلنديا قادمًا من القدس متوجهًا إلى رام الله وصل متأخرًا قليلًا عن الحصة الأولى، وكانت لهذا اليوم حصة في تاريخ العرب الحديث.. كان الحديث عن أصل الدويلات العربية الحديثة، قال معلم التاريخ..

: استقلّت المذاهب العربية بدولها عن استعمار الدولة الأم بعد انطلاق الربيع العربي في العام ٢٠١٠ أي قبل حوالي ٤٠ عامًا ونالت تلك الدويلات استقلالها في كلّ من سوريا لتصبح ثلاث دول مستقلة، وفي العراق لتستقل إلى أربع دول لكل منها علم ونشيد وجيش مستقل و..

أنهى درس التاريخ الحديث وعاد لمناقشة أسئلة الامتحان عن التاريخ الفلسطيني..

: أمّا إجابة السؤال عن سبب انقسام حركتي فتح وحماس الذي نعيشه اليوم فالجواب هو..

وبخصوص السؤال الرابع كم تبلغ نسبة المسجد الأقصى إلى المعبد اليهودي الذي أقيم على جزء منه فالنسبة هي..

رائحة وطنية

كان اجتماعًا عاصفًا، يساريون ويمينيون ووسط وراديكاليون وعلمانيون ومتطرفون ومتشددون اجتمعوا تلك الليلة لإقرار خطة وطنية لمواجهة المرحلة المقبلة.

كان يرتدي بدلةً سوداء من إنتاج ميكس وقميصًا من إنتاج نيكست وبدأ بالصراخ..

: فقط بالسلاح الموجه وغير الموجه يمكن تحرير القدس... آخر يرتدي بنطالًا من الجينز من إنتاج شركة باسيك دايتون وقميصًا من نوع كروز انفعل بشدة وصرخ..

: أيّ سلاح وأيّ تسليح، الأفق السياسي لا يحتمل إلّا حلًّا واحدًا هو المفاوضات للوصول إلى السلام الشامل.

كانت مساحيق التجميل من نوع أيفون الفرنسية تغطي وجهها وتصبغ شعرها الأسود المموج بلون بني بصبغة من نوع إيست إن سمبل، أزعجها صراخهم فبدأت تجاريهم بالصراخ..

: السلاح والسلام منفردين لن يحققا أيّ شيء علينا أن نستخدم السلاح لنصل إلى السلام.

تناولوا وجبة ماكدونالدز وشربوا قهوة من نوع ماكسويل هاوس مع سجائر مو وأنهوا اجتماعهم ببعض الأيس كريم من نوع باسكن روبنز.. خرجوا مبتسمين لكاميرات التلفزة المحلية وكان تعليقهم عن انطباعهم عن هذا اللقاء فقالوا: تفوح منه رائحة الوطنية.

*** ملاحظة: جميعها شركات تدعم الاحتلال

الفهرس

المقدمة	٥
الإهداء	٧
وشوشات	٩
قصة يوسف...	١٠
شباك المحاسب	١٣
شخصية هامة جداً	١٤
مقابلة	١٥
أزمة سير	١٦
إنقسام	١٧
فأتمها... عشرًا... عشرٌ على الغياب..	١٨
رؤية..	٢٠
محاولات..	٢٢
يوم واحد من السعادة..	٢٥
رعيٌ جائر..	٢٩
"خرمنجي" دخان..	٣١
حكاية بنهاية مختلفة..	٣٣
أحلام خارج النافذة..	٣٦
نتوق لطفولتنا..	٤٠
تحمله للمرة الأخيرة..	٤٣

قصص قصيرة جدًّا.. ٤٥
مايا.. ٤٦
موتٌ بصمت ٤٧
إحباط طائر الطنان. ٤٨
قمر الحصادين ٤٩
رسالة إلى مهاجر.. ٥٠
عبثية الحاجة لطيفة ٥٣
عام دراسي.. غائب.. ٥٥
القدس... قاموس الروح.. ٥٧
حياة.. وسط الموت.. ٥٩
بريطانيا العظمى.. ٦١
آخر صورة.. ٦٣
بنك الذكريات.. ٦٤
حوار فوق الأنقاض.. ٦٦
حلمان وأمل ورصاصة باردة.. ٧٠
حوار مع الوطن؟! ٧٢
حمَلة هموم عليا.. ٧٤
ماء وملح ورسالة الوعود.. ٧٦
عودة لاجئ.. ٧٨
احتفال الكذابين.. ٨٢
نظرة عبر النافذة.. ٨٤
صلح لم يكتمل.. ٨٨
حكاية دافع الضريبة.. ٩٠

كول.. ٩٢
فجرًا على الحاجز.. ٩٤
رسالة في عيد الأم.. ٩٧
حكاية فيلم.. ١٠٢

قصص غير و اقعية أبدًا.. ١٠٦
صلاح الدين الأيوبي ودرس التربية الوطنية ١٠٧
نظرية داروين وكتاب الثقافة الإسلامية ١٠٨
كتاب التاريخ في العام ٢٠٥٠ ١٠٩
رائحة وطنية ١١٠
الفهرس ١١١
رسالتنا ١١٤

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017